حيدر حيدر

الومض

قصص



حيدر حيدر

الومض

قصص

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق
١٩٧٠


الومض

صمم الغلاف

عبد القادر أرناؤوط

قصص الكتاب

الصخور

ـ هذا الطفل لا مبرر لرؤيته هذا العالم !

قلت هذا ونقرت بطن المرأة المنفوخ   انت متراجعة بحركة دفاعية ثم لوت رقبتها ألما

ـ أيها الاحمق

كما قبلت هشاشة الحياة ، قبلت هذه المرأة المولودة من الضلع المناقض للحركة والتغير

سأهاجر   ذلك هو العزاء للذين فقدوا القدرة على الانتحار. وقفزت الى المكتبة   تناولت بعض الكتب وركمتها في الحقيبة ، ومن خزانة الثياب اخرجت عشيقتي الزنجية الفارهة   بضربة خافتة عريتها من ثوبها ثم قذفتها في الفضاء فاستلقت على ذراعي .

قبلتها بهوس ثم اسندت اخمصها الى كتفي وصوبت من خلال زجاج النافذة خط التسديد ـ الشعيرة ـ قمة قاسيون طاق طاق طاق ثبي ايتها الارانب ، وانفري يا ديوك الحجل ، فعما قريب تبدأ لعبة الفرح والموت

في غلاف قماشي قديم لففتها قمطتها كيلا تتخدش ومددتها بين الثياب داخل الحقيبة نامي هنا ياعروس الموت

قالت المرأة التي تزوجتني خطأ نسيت علب الخرطوش

كرجت نحو المكتبة ثانية فتلني فرح فرح متوهج حملني الى المنحدرات وانا احمل علب الخرطوش ، واضمها الى صدري كيلا تنهار صاح فرح الرحيل افتحي الحقيبة !

وفي جوفها هيّلت صناديق العلب الملونة

فجأة من مكان ما من الغفس شالت اغنية

« داخل حدود المدينة المسيجة بالاسلاك

يحلم السجناء بالهروب والشمس الصاحية

هناك في المرتفعات الشرقية

قرب مهد الشمس

ينقر السمّان حبات الغار السود

طيور الحجل فوق الصخور تغني

وتنفض البلل عن اجنحتها

والصيادون خببا يرتقون المرتفعات

والمدينة هنا كهف ،

على بابه عنكبوت ،

وفي المدخل علامة

الصيادون من سلالات الشمس والآفاق
والعنكبوت ينسج بهدوء ،
والعلامة تقول هنا مقبرة التاريخ »
ومرت غيمة الحزن تجاوزت قاسيون نحو اماكن اخرى
اشارت المرأة ان أصطحب المعطف رددت بفظاظتي التي لاتطاق:
اعتني بنفسك ايتها المراة الوحيدة
قالت متجاوزة هل ستذكرنا وانت تشوي الارانب ؟
هززت رأسي ، وتثاءبت ابتسامة دخيلة لا تنسي الوصية اجهضيه
ندبَتْ أخمن انك لا تنوي العودة أيها المجنون !
تمنيت ان أقول لو كان بودي غير انني رشقتها ببسمة هزء

زعق بوق السيارة زغردات ثلاث ، فعاد هبوب الفرح يشيل
حملت الحقيبة ووثبت هيه وداعا
ـ ألن تقبلني ؟
ـ خذي وسفحت شفتيها بقبلة ثأر قديم
خطفاً رمقت دموعها تنهال فوق وجنتيها يا للتعيسة
وكنت مجنوناً بفرح الرحيل عن مدينة الرياح
السيارة تطوي الطريق ، والرغائب تتيه في النفس كضباب الاودية وهو يتسلق السفوح نحو القمم خلفي الآن تستلقي المدينة التعبة ، خرابة مهجورة كساها الغبار وخيوط العنكبوت.
من خلال زجاج السيارة رحت أتصيد انتشائي بالاشياء
السهول ، الروابي الصغيرة ، السواقي الجافة ، ثم شريط الصخور الممتد على طول الافق الغربي بدا وكأن صاعقة قصمته

فبان كشاهدة قبر لقاسيون المتأبد

ستة عشر عاما من الانتماء لتلك المدينة المهجورة للبشر ، والاحداث ، والمستقبل وسدرتني غفوة حلمت خلالها بأنني طفل يلعب فوق مروج ربيعية ، توجتني الفصول ملكا ، وقدمت لي حوريات سلالا ملأى بالزهر والفرح وعدتني بشموس لا تغيب وظلال من قمح وحرية وعدل

يا للأحلام الربيعية !

ها انـذا استيقظ ، فاراً مـن برودة الكهوف ، بعيـدا عـن الخرائب التي هاجمها الحزن والصقور الجبلية الجائعة

احلام الطفولة سافرت نحو جزر قصية لا وجود لها ، وانا لم أرغب أن اكون ملكا

كان الصمت عادلا داخل قبو السيارة ، احسسته منحـة سماوية مع هؤلاء الغرباء في الطريق الطويل كنت اسرق تأملاتي بروعة الاشياء الجاثمة في الخارج ومع نهر الزمن كنت انعطف بحرية في تيه دمنة النفس

بالصيد حلمت ، وأنا أرى الجبال من خـلال الزجاج تصورتها مليئة بالارانب وطيور الحجل وانا أتسلق وراءها والهث ، افاجئهـا فتذعر ، اطلق عليهـا فتتهاوى على جبهـة السـفوح الوعرة ، مكسورة الاجنحة ، تتخبط فتلطخ الصخور بالدم ، ثم تركن

أشعر بالتعب فأستلقي في فيء صخرة سامقة ، وانام على الارض بوداعة طفل وحيد منهك

في غفلة الصيد ، فاجأني المطر راحت قطراته تضرب زجاج الواجهة خيوط فضية مائلة تشطب الفضاء ، ترهج في أصيل الشمس قالت النفس بمودة سرية لماذا الخيبة تحت سمـاء

تمنح المطر ؟

★ ★ ★

مذ قرات أول كلمة في سفر هذا العالم الهائج ، طوقني الحزن صار التكيف مفقودا وخلال مسيرة الاعوام الطويلة التي مرت ، لم استطع تفسير حالة الحلول بين نزوعي الفردي الحاد ، وبين غوصي في نهر البشر كنت احدس انني سألتقي بمثالي الضائع بين ملايين مفقودي الهوية عبر الاسلاك والاشراك التي نصبت على هذه الارض ، وغالبا ما رغبت الانسحاب الى طرف قصي ، لكن محاولاتي

واليوم ومدينة احلامي تخور بالعجز ، ما الموقف ؟

للارض رائحة الحريق ، والشوارع تبدو مقفرة ، ومدينتي التي احببت ، دخانها يسيل الدموع مدينة مقفلة في وجه الرياح تمطر خيبات على الصفار أمثالي ، وليس سهلا الجواب على : لماذا يشوه الرجال الحمقى مدينتي الزهرية ؟

استمر المطر ينشد اغنية الحزن المتعة سألت السائق ان يفتح الراديو ، مع اغنية المطر انتشرت غلالة فيروزية بددت صمت المتاهات قال الحنين أنا أغنية صيف قديم ، هاربة من مزمور داؤود كلمة مفلتة من نشيد سليمان أتيه وحيدة خلف زمن الانسان

وتذكرت الفصل الاول من مسرحية حياتي

في شعاب مدينتي كنت أرى الانسان طفلا وماردا وهو في حالتيه سيد التغيرات وكنت اتساءل اي فرق بين النبي والانسان ؟

ومن روابي النفس الفضة ، كان الجواب يأتي حاسما ولفترة اقتنعت باسطورة النبوة كان مثالي اكبر مني يتطاول

طيفـا مبهما يسد نوافذي ذات يوم حلمت انني صرت بطـلا ، وعندما مشيت في تيار نهر البشر المتدفق وسمعت الهتاف والتمجيد ، لمست خيوط التحول الممتدة بين حماقة البطـل وهشاشة النبي

ذلك الفصل امتد اعواما ، علمني أشياء كثيرة لا تنسى كان لي فيه اصدقاء وعشيقات وآلام خاصة ، اذكر منه حوارا جرى بيني وبين صبية أحببتها

ـ هل تأتي الليلة ؟

ـ لا ادري

ـ لماذا ؟

ـثمة عمل

ـبطولي ؟

ـ لا

بتهكم خلية اخرى ؟

بغضب انت امراة قذرة

ـ وانت اله اجوف قملة في صحراء هذا العالم

ـ اخرسي

خائبة سأخرس لكن انت ستنسحق

ـ

وعنـدما أرتجت الباب خلفي بعنف لئـلا أصفعها ، صرخت في راسي

ـ قلاع الاحلام الرملية تهدمها الرياح يا طفلي الصغير

اثر الحادثة سرت في شوارع المدينة ، طوفت حول كعبتي ، وكنت ارتعش من الخوف والوحدة الداخلية

قلت أشعر الصقيع في عظامي
قالت المدينة لا تخف سأحميك منازلي الزاهية سقف حياتك ، ودثري صوف وطيلسان اخضر
ـ ارغب بيتا صغيرا نائيا كِواه مفتوحة للشمس والحرية
قالت المدينة سيكون لك ما تريد
ـ أشعر بالوحدة !
قالت بحنو دافىء أنا أمك وام الملايين
ـ لكن المراة قالت اني قملة !
بزهو بل أنت ملك الفصول ، من اجلك ولد الزمن والحقل والنجوم ولاجلك يصنع التاريخ وتميد الارض بالثورات
ـ ثم قالت اني احلم
همست لي في رحمي ينمو مثالك ويوم الوضع سأقدمه لك على وشاح غيمة يومها سيهمي مطر غزير فوق الزرع ،
يعمر الارض زهو ورقص وميجنا ، وعن الجميع يرحل الليل والدم وبؤس السنوات وعاد الامان لي انهيت طوافي الليلي على الحراس والخلايا وبحرارة شددت على أيدي اصدقائي الاطفال :

قريبا تتكسر الاصفاد ، وبدل الملح والصبار نأكل خبزا حارا من حبوب السهول نتيه فوق الارض نبني بيوتا للبشر المنبوذين ونزرع حدائق الحرية يزهر العدل مع الشمس ومع الزرع نغني في مواسم الحصاد المجد للاطفال والمتعبين والجياع المجد لكم يا أصدقاء طوبى للفقراء والتائهين لجميع الفقراء والمعذبين على هذه الارض
بذلك هجست في خاطري مدينة الصبوات



ما تزال السيارة تجري ، والمطر ينهمر   تحاول مساحتا الزجاج صدّه لكن القطرات تتمرد والسائق يدخن

قربي راحت ثرثرات عادية ترمى لازاحة الملل   ورويدا راح الليل يرتمي كرة من هلام اسود والسيارة تشق رحم الظلام ويهاجر نشيد سليمان الفيروزي فيسدل ستار الفصل الاول

كان عشقي للمدينة قد تحول الى نوع من الهوس   نسيت حب الصبية وهجرتها

في الفصل الثاني دربتني المدينة على قتل نزواتي الفردية لاهبها ما تبقى من ثمالة العمر

كنت اجوس في الدروب الوعرة مبشرا   اتشرد في شتاءات الايام وانام مع الجياع والمنبوذين   أغري الاطفال بالشموس الوضيئة ، واعدهم بخمر الميلاد والخبز الابيض   ستكون لكم مدينة ملألأة   حقول حنطة مخضرة مد البصر   في قراكم يزهر الحب ، وبيادركم مصونة من الطيور الغريبة ، وفي كل مكان لكم اصدقاء حفاة من نسل الارض التواقة للانفجار   وعلى مدى الآباد ستزدهر الطمانينة في نفوسكم   السلام والهدوء والمجد لكل طفل   الحب والحرية والقمح لكل انسان

وفي اخريات طوافي النبوي ، أعود مجهدا الى كوخي استلقي على الفراش واهجس :

ـ هوذا العمر يمضي

ـ انت رجل خلاق   تهمس المدينة

ـ اخاف السراب

توسوس   سلام للمبشرين بمدائن الانسان ، بربيع دائم وممالك لن تغرب عنها الشمس والفرح

ـ اخاف الجرح

تهلوس الفتح قريب أسراب الجراد سترحل ستهب الرياح من كل الجهات وتسقط الحواجز والإسلاك الفرسان قادمون على خيل صهب والزغاريد ستعمر الكون

وبين الوسوسة والهمس اغفو نشوتي أحلام اقحوان ، وفرحي عرائس جن في هوادج منشورة على مدى الصحارى

★ ★ ★

فصل مدهش

المدينة تتزيا بأبهى الفرح انا مع الاطفال نرقص ونزغرد في عرس امنا نشدو جاء الميلاد جاء فارس التاريخ والفتح فيا أرض اهزجي

وتميد الدنيا القيامة والنشور وفي طول الارض وعرضها ترتفع المشاعل الدروب ريحان أخضر ، وبشر كالطوفان انتشروا تحت الريح والمطر ، اكفهم صنوج نحاس ، وحناجرهم رعد سماوات ظامئة تدوي في يوم الحشر

وفي ليلة شتائية قارصة ، تقدم مفاتيح المدينة لفارس الزمن

تزَف مدينتي في عرس استمر سبعة أيام بلياليها ، لا أحد يأكل ولا يشرب ولا ينام الا الرقص والغناء والزغاريد في عرس مولانا السلطان

وفي اليوم الثامن يفصل الحراس الليليون ، فالمدينة الآمنة المفتوحةالابواب ما عادتبحاجة اليهم، ويقال للمجهدينارتاحوا، فقد انتهت الحرب

ـ وفي اليوم التاسع أنام ثلاث سنوات متواصلة

★ ★ ★

انتهت نشرة الاخبار وهمد المطر قليلا اطفأ السائق لفافته ورمى بعقبها من النافذة

اشعلت لفافة في الصمت الليلي انعطف الزمن بي ودار وانهمر حزن كهذا الليل. قالت الكآبة أنا غجرية سوداء أنصب مضاربي قرب الصخور البركانية ، ولأن عشيقي غادرني ولم يعد ، أظل انتحب حتى مطلع الفجر

فصل مفجع

حكاية بلهاء عن مومس ازمنت الزنا مات بهاؤها في زحمة الايـام السود امتص الزمن رحيقها فتغضنت

عقيم ليس في رحمها مثال، تحن لفارس قديم انتهكها وغاب.

ولأن أرضها بوار وأعراسها بلا بشر ، تحاول أن تلملم لقطاءها المفجوعين لينشدوا لها الفرح

« من أين يأتي الفرح يامدينة المجوس ؟ »

جميع الاطفال ماتوا في زحمة العرس، والذين حلموا بالبيوت الشمسية وقمح السهول يسكنون على ضفاف الشوارع ويعجنون الدموع المقهورة

★ ★ ★

في مرفأ الصبية القديمة بتّ ليلتي محاربا يعـود مكسور الرمح في شوارع مدينتها سريت داخل ليل خافت الاضـواء في يدي حقيبتي وفي رأسي شظايا الفصول

قالت النفس هنـا يقطن شاعر قديم ينسج خيوط أيامـه

على نول الغربة ، ويغني خيباته في ضوء القمر ، ربما كان العزاء

سمعت هدير البحر ، وصياح النورس فوق الخلجان خبّت الخطوات اكثر غبّ انسكاب المطر ولجْتُ زقاقا معتما ثم قرعت البـــاب

ناح صوت خافت خائف من هناك ؟

اقتربت الخطوات من الداخل وعاد الصوت يسأل

تكسر صوتي : القملة !

وصر مزلاج الباب ثم انشق وئيدا وئيدا تسربت حزمـــة ضوء اخترقت الحزمة صرت على ارض الغرفة المضاءة

امرأة تخطتحدود الثلاثين ، مليحة ، سماتها أمومية ، وفي عينيها حزن وجوع جزائر وحشية لم تكتشف كانت سامقـــة ، ملأت حضوري وفي لحظة كالبرق بددت لي جميـــع احـــزاني القديمة

كانت مشدوهة وعلى شفتيها بشائر صرخة ، وهي تحدق بي . فجأة تبلج الصمت ، غار في تحولّات الزمن وهمس أنا جســـر المعجزات بناني اله العجز والدهشة أمتد من أقمار الحلم حتى رحم الارض العاقر

وكأمّ فارقت طفلا عاقاً انشبحت على صدري أحقـــا هـــذا أنت ؟

من بين ذراعيها انسللت ارتميت على الديـــوان واشعلت لفافـــة

– هل أستطيع أن أبيت الليلة هنا

رنت نحوي بانكسار عاتب ما تزال تفتعل الحياد

قلت بلا مبالاة لا الآن انا محايد حقيقي .

ـ علمك الزمن !
ـ والمدن الخائنـــة
واردفت أنا جائع
هيأت المرأة عشاء متواضعاً ومن حقيبتي تناولت بطحة عرق
ـ وبعد الليلة ؟
ـ الى الجبـــال
ـ ماذا هنـــاك ؟
ـ صيـــد
على المائدة سألتها لماذا لم تتزوجي ؟
ابتسمت باستخفاف : في الصدر لم تعد هناك أحلام واشارت الى صدرها
مضغت لقيمات وشربت بعض الخمر ها انت تعود أخيرا !
ـ امرأتي حبلى ستضع ولدا
ـ كيف هي مدينتك ؟
ـ لست راغبا بالطفل مشوّه بالوراثة ، وملوّث
ـ أما تزال المدينة كهف حياتك ؟
ـ الاطفال أغبياء وكذلك النساء ما عاد باستطاعتي أن احب احـــدا

من جديد انسكب الصمت ، وراحت ساعة الطاولة تزيد في ايقاعه كان صمتا كئيبا ، وخارج الغرفة تناغمت زخـــات المطر مع دقـــات الساعة

مرة اخرى خيل الي انني اسمع صوت النورس ، يخفق تحت المطر في سماء حزينة نحـــو مدن خربها طوفان البحـــر ثم انحسر

عنها هنــاك يبني النورس اعشاشه ويضــع بيوضـــه قالت النفس الجبال بعيدة لا يصلها الطوفان ، والصيد حصاد بقــايا الشموس التي أفلت

دقت الخمرة الابواب الموصدة ، ثم فتحتها للريــح صارت النفس سفينة منشورة الأشرعة تعبر جزائر الفرح ولم يكـن لها جهة غطاني الحزن بعباءة شفافة ، ثم ابحر بي ، وارتميت فـي حضن المرأة انشج

★ ★ ★

ها انذا اعانق عفوية العالم القفر جميع المدن قد توارت من الذهن . وحيداً اتطهر فوق هذا التراب المجبول بالمطر اطير في الهواء واغني ، منحدرا في سفوح البراري بين الغابات ، واثبــاً كأرنب بري هارب

في السماء يتكاثف الغيــم ، يستر وجه الشمس ، وعلــى الارض ترتمي ظلال كئيبة تنفرش فوق الصخور والنفس

يهطل مطر خفيف ، ثم يشق صدر السماء خيط متلوّ كالجرح ، يعقبه هدير تخنع له الارض ، فأشعر انني في موكب القيامة

تحت المطر والقصف أسير ، محتميــا بالاشجار العــارية ، وباجم السنديان . ويعنف المطر ، فأركض الى كنف الصخور ، تغزو سمعي اصوات الحجل والمحهــا تسفّ فــوق المنحدرات فــاردة اجنحتها الرمادية باتجاه الادغال .

يطردني وكف الصخور ، فانســل تحت الخيوط المنسكبة مخوّضا فيمروج النمص والشوك . الفرح الوليد ينمو ويتعاظم نمو المطر واتبلل تعب وصقيع يتسللان عبــر لحمي العــاري وتبدأ اولى الرعشات

اصعد الجبل ليس ثمة دروب سالكة ، أحاول الاحتماء تحت ضلع صخرة مقوسة ، أتقوس على نفسي والتحم اكثر بجسد الصخرة لتحميني

ويهجم الليل ليل موحش فوق ارض مقفرة ، مزروعة بالتوقعات والفرح الخائف

صمت صمت صمت يودي الى صمت حتى ايقاع المطر تحوّل الى نذير وحشي ، الى ايقاع موسيقي يوحي بالغربة والتوحّد هذا الصمت الكبير الممتد حتى منافذ الأفق هو الرعب الحقيقي

أحاول أن اشعل لفافة ، لكن الثقاب مبلل فأمضغ السيكارة بلذّة مرّة يزداد تسكاب المطر ، فأشعر بأنني مهدد في هذا الطوفان الجديد

تزداد الرعشة وأحس انني على ابواب التصلب احرك اصابع يدي وقدمي داخل الجزمة خوف التشنج اغرس أسناني في شفتي السفلى ، ثم أثب خطوة الى الامام : لم تمت بعد

أتناول البندقية الموكوءة على ضلع الصخرة ، وادخل نطاقها حول رقبتي فتصير متصالبة مع الظهر ، ويصرخ الالم في مجموع جسدي لكن النفس تتمرد

انحدر شيئا صغيرا يتحرك في ليل موحش بحثا عن ضوء . فوق مروج النمَص القائمة المصقولة كسطح من جليد رحت اتزحلق ، زاحفا كحيوان نحو الوديان عبر الظلام الشاسع

وتسامق الظلام، صار غولا غيبني في جوفه كنت ما ازال ادبّ متئدا كدودة فوق العشب الحريري خوف السقوط في الهاوية السحيقة

فجأة انزلق ، اسقط على ظهري ، تنجر يداي بحثا عن شيء تعلقان به ، فتنسحبان فوق الحصى الناتيء والشوك يتمزق جلد كفي فأشعر بحرارة الجرح والالم وانا امسك جذع ريحانة صغيرة انتهت مروج النمص الملساء ، وبدأت أتوكأ فوق ارض محصبة ، هاويا باتجاه ضوء لمحته . ثم أصدى الصمت مرة أخرى.

خف هطول المطر ، لكن ظلاما أعمق من ظلام المحيطات كان ينهض أمامي الآن ارتطمت قدمي بصخرة فالتففت حولها في شعب ضيق ، صدمت ركبتي صخرات صغيرات مسننات فغيرت اتجاهي

وقفت قليلا ثم حدّقت في بحر الظلام المخيف

على مدّ البصر اشباح كالحة كالتماسيح تقوم في وجهي تجاوزت قسما منها ، لكنها كانت تتوالد من أرحام بعضها البعض صانعة سدا وحشيا لايقهر

منذ لحظات انتهى الصيد ، وحرب النمص والزحف ، وها هي حرب أخرى تقوم

انا وحدي بين هذه الضلوع الصلبة البدائية أحاول انقاذ جلدي أشباح تسد المنافذ، ممتطية صهوة هذا الليل وحماقتها، تضرب في اعماق الارض ممتصة خصوبة التراب مانعة الجذور من التغلغل ، ها هي تتواثب كَفِيَلة مهتاجة تبغي لحم فريسة صغيرة.

ــ « لن تموت لأنك وحيد

واشعر انها حربي وانني عدو فيفرغ ذهني من المعادلات. قد تطول المسافة ، قد تطول الحرب ربما يفقد الزمن قيمته مع هذه الوحوش القائمة في أرض الغابات البكر ، غير انك لن تموت بطريقة تلقائية لاتود أن تبني شيئا فيما بعد ، ولن تحلم

بعد اليوم بمـــدن ومروج واطفال بله ، ما يهمـــك ان تحتفظ بطهرانيتك ، بتمردك الخاص خارج هذا الجحيم المتلف

هنا في هذا الغاب تنبثق هذه الصخور بتلقائية مريعــة ، تتوتد في مملكــة الانسان لانهــا الاقوى ، وهي ليست أكثــر من صخور مجوفة حمقاء، نبتت فيغياب الصيادين والزراع ، لكنها لن تستطيع قتلك

ركضت بينها فصدمتني. طعنتني فيصدري فسقطت فوق بندقيتي المعلقةعلى ظهري. ركضتاكثر فشجت راسي وجبهتي. على جدرانها سال دمي وقرات فوق شواهدها حياتي التي تسقط وحياة أحبتي   تجاوزت قسـما منها فانفغرت بوحشية أعظـم أمسكت بالصدر التمساحي الخشن   أيها الجلد الأبله الفــاصب انني اكرهك !! باصرار حاولتاجتيازها فطعنتنيأيضا   حاولت تسلق صخرة كبيرة فوقعت على وجهي ، وشعرت شيئا فــي جسدي يتكسر   نهضت والحمى تترامــح في جسدي ، ومــن ياسي وجراحي حفزت قوة وثب رمتني على سطح صخرة

حشوت بندقيتي وصحت بوحشية انســان يرفض الموت خذي   ورحت أطلق   خذي أيضا

وبجنون راحصوت الطلقات يدوي   الأودية والنفس رددت صداه   تسللت الراحــة مــع الــدوي والصدى فشعرت بغبطــة انعتاق

★ ★ ★

في الصباح كنت ما ازال مصدوعا والمخــدة مبللة ، وفــي الفراش لا يوجد اثر لامراة

كان ريقي جافا وفي معدتي جشأ زئبقي ، وجسدي ثقيــل

ومنهك تحاملت لأفتح النافذة ، فجأتني عصـابة بيضاء تلف يدي ، واذ نظرت في المـرآة لمحت وجها غريبـا مشطوبا وعينين قد تورمتا

بهـدوء للمت أمتعتي المبعثرة على الارض لمحت شظايـا زجاجية والساعة مطروحة على وجهها تـدق بخفوت مسموع

ولأول مرة ، أرى الفرفة تدور كأنها الارض ، والمح صـور الاشياء تنفتل بسرعة السرير ، ولوحة الجدار سفينة كبيرة بنية تتأود مائلة بصواريهـا وسط لج هـائج الديوان الزهـري المنضدة الصغيرة المحفورة السطح ، عارية وسط الغرفة ، ثم انا هذه الموجة المنكسرة على صخور الشواطيء

★ ★ ★

آه تلك الأم تزغرد وتبكي في مواسم الصيد ، تنتظـر عودة الفارس المهاجر ، وفي يدها باقة حبـق ، تطرش البيت بالحوّار وتنفض الغبار عن صورة ابنها المعلقة على الجدار أقول لها فيما مضى

ـ لماذا الحزن ؟ نحن في المدن يا امـاه نبني مجد الزمـن ونهيء الحرية والفرح لجميع اطفال العالم

فتغرغر بدمعتها انت مجدي يا بني لتكن ارادةالله معكم

ها ها ها سلاما أيتها الامجاد القديمة سلامـا أيتها الشموس التي كانت وضيئة . سلاماً يا أمي

سلاما يا أفراحنا التي انطفأت

طقوس للعار

عندما غادر علي الزاعي « الصبوحية » لم يكن يملك مالا ولا ارضا كانت ثيابه عتيقة مغبرة ، لكنه كان فتيا بقوة الصخر

في سمعه وهو يغادر بيته العتيق ، والشمس تنحدر نحو البحر ، رن صوت امه كن عاقلا في بلاد الغربة واذ تلاشى الصدى ، ارتعشت في اعماقه حكمة قديمة كبيته العقل زينة الانسان »

جرى على الطريق الغباري ، ثم مالبث ان انحدر في السفح ، والفرح يزقو بين ضلوعه ، ولما احس بأنه اصبح بعيدا عن الصبوحية وثب في الفضاء كفحل معزى فوق مروج خضر ، ثم فرد يديه وصفق بسخرية فرحة ، واندفع كقذيفة يعدو باتجاه الحرب

امضى علي الراعي طفولة بائسة في قريته . عرف الجوع والعري واضناه التعب . كما كانت بنات الضيعة يهزان من انفه الدقيق الملتوي وصلعته وتأتأته عندما يتحدث معهن

الآن انتهى ذلك وانتهى ايضا الاستيقاظ الباكر لرعي الدواب ، وغابت وجوه الفلاحين الكتيمة المغضنة وثرثراتهم وهم يعودون من السهول ، كما ارتاح من قرص البراغيث في البيت المسقوف بالشوك والتراب والحطب والفئران

ـ « وداعا ايها السجن القديم الممل ! »

همس لنفسه بصمت ، ثم لوح بيديه لآخر بيت رآه يغيب وهو في صندوق السيارة مع رفاقه ، فأحس انقباضا محزناً ، ثم فجاة راى نفسه وحيدا مسلوخا عن موطن طفولته

فيما بعد ، بعد زمن طويل ، تذكر علي الراعي انهم مروا بمدن توقفوا فيها قليلا ثم تابعوا ، ولما وصلوا في اول المساء أطلت عليهم انوار كانت ترقص كالنجوم وإذ سأل علي الراعي أحد رفاقه عن هذه الكواكب اللألاة قال له ساخرا هذه مصابيح كهرباء ياغشيم .

ويداهم علي الراعي بمدينة ضخمة كالجبال ، وبأبنية حديثة ، وسيارات مسرعة لم ير مثلها في حياته يفاجأ بأنها لاتصدم بعضها بعضا ، كما يذكر انه كاد يصرخ وهو يرى نساء سيقانهن عارية .

كان يخجل من الاسئلة خوف الخطأ والسخرية فيتمتم لنفسه: لابد أن هذه بلاد الغربة كما قالت امي !

عندما وصلوا المعسكر القائم في طرف المدينة ، بوغت بأن ماراه قد مضى ، كما مضت الصبوحية ، وأنه الآن في الحرب

كان المعسكر شبه معتم ، واذ وطئت قدماه الارض ، تذكر تراب الضيعة وداهمه حنين أولي خافت

انه مستلق الآن على سريره الحديدي في الظلمة التامة ، وهو

يحلم بالضيعة والمدن النظيفة التي رآها الناس والسيارات والاضواء الباهرة العالم الضخم المتحرك خارج قريته الضيقة الساكنة

وفجاة يهب على صوت البوق.

استغرق خطاب قائد المعسكر ساعة ونصف الساعة عن حب الوطن والتضحية بالدماء والانضباط الذي ركز عليه وكرره عشرات المرات ، فاخبر الجنود بأنهم قادمون على معركة مصيرية وان عليهم أن يكونوا في مستوى من التدريب واللياقة وأطاعة الاوامر بحيث اذا بدأ الهجوم الكبير يرفعون رأس الوطن عاليا ويحققون له النصر المؤزر ثم ختم خطابه بآية مشجعة :

« وان ينصركم الله فلا غالب لكم »

★ ★ ★

اثبت علي الراعي خلال الفترة الاولى من التدريب كفاءة مدهشة ، حدت بمدربه لأن يطلب له اجازة يمضيها في المدينة

هاهو فيها مسحورا بالاضواء والحركة والاصوات شوارع نظيفة وابنية شاهقة وسيارات ثم هؤلاء النسوة البيضاوات كالحليب

ـ وي علي الراعي . ماهذا ؟

ويضحك في سره وهو يتذكر فطوم وزينب وعليا الوسخات الشريرات

قال له رفيقه دعنا نذهب الى السينما !

وبعد شرح معقد من صديقه فهم أن السينما صور جميلة ممتعة تركض فقال بسذاجة : ولكن اليس مانراه هنا سينما ؟

كان مبهورا والصور تمرّ على شاشة عينيه فلا يكاد يستقر

بنظراته على الاشياء وإذ يرى نموذجا لامرأة واقفة داخل زجاج مخزن يحدق فيه دهشا ثم لايلبث أن يهمس لصديقه الاتثعب من هذه الوقفة ؟

فيقهقه صديقه وهو يسحبه من زنده ، ويمضيان

في نهاية الدورة فاز علي الراعي بالدرجة الاولى ، فمنح رتبة عريف فخري واعطي جماعة ليدربها من اجل الهجوم

بقسوة خالية من أية شفقة درب جنوده لم يكن يحب الكلام وكانت كلمتــه المأثورة العسكرية موت وليست لعبــا ترن في آذانهم وقليلا ماكان يبتسم

ومذ اوكلت اليه المسؤولية الاولى والثقة ، بدأ يعمل بــدأب وقدوة ومثالية حتى انقطع عن النزول الى المدينة ، وحرم نفسه من اية اجازة لقد اصبحت الثكنة بيته ووطنه وعالمه لكـــن الجنود كانوا يمقتونه لصلابته وخشونتــه فاطلقوا عليــه لقب : الوحش

وفيما بعد ادركوا انهم كانوا على خطأ فقد سهر علي الراعي معهم يوما ورووا ذكريات شخصية قديمة وضحكوا وشربوا الشاي معــــا

وليلتها غنى لهم علي الراعي بصوت جارح حزين عتابا وميجنا وسكابا حتى ساعة متأخرة من الليل ، واثر ذلك صار اثيراً لقلوبهم وتمنوا أن يقودهم في الهجوم

* * *

قال قائد السرية ذات مساء لعلي الراعي علي انت ذكــي وصبور لماذا لاتكمل دراستك ؟

فاجاب دهشا دراسة ماذا سيدي ؟

ـ تدرس في الكتب وتنال شهادة

ـ ولماذا الشهادة سيدي ؟

ـ الشهادة تدخلك الكلية العسكرية فتتخرج ضابطا

وحدق في وجه القائد مليا ثم عد على أصابعه سنوات الدراسة وسنوات الكلية الحربية وسنوات التدريب وقال للقائد وهو يهز رأسه وي‌سيدي. كل ذلك الوقت سيمر حتى أحصل على رتبة ضابط ؟ لا ياسيدي لا يكون الهجوم الكبير قد صار وأنا ما أزال في المؤخرة

وقال القائد انك تفكر كثيرا في الهجوم

فقال علي الراعي طبعا سيدي لماذا نتدرب اذن ؟ عندما يبدأ الهجوم الكبير سأقطع رؤوس الاعداء وراس كل جندي عدو ، بنجمة وهذا أفضل من الدرس

ولأول مرة يبتسم علي الراعي ببساطة فلاح طيب شجاع اردف الضابط وهو يبتسم للسذاجة الريفية : وهكذا تترفع الى رتبة ضابط ؟

قال علي نعم وبجدارة

ـ واذ ما تأخر الهجوم ؟

أكمّد علي الراعي ، وأطرق نحو الارض ولم ينبس هوّمت الضيعة في ربى نفسه فتساءل بصمت ولماذا تركت قريتك اذن يا علي الراعي ؟

كان الضابط قد غادر الآن وهو يختال برتبته العسكرية اللامعة

ـ ٢ ـ

استمر التدريب ، واستمرت الايام بطيئة رتيبة ، وقسوةعلي

الوحش وخشونته على جماعتــه لاتتفير العسكرية موت فهمتم ام لا ؟

وذات ظهيرة سأله أحدهم متى يبدأ الهجوم حضرةالعريف؟

فعقد حاجبيه غضبا وزأر في وجهه نبلغكم الامر في حينه

ولم يكن راضيا عن الجواب وردد السؤال في سـره فشعر بضيق وغيظ مبهمين

خلال الاستراحة ، كان يجلس على صخرة في القيظ ويشرد

الصبوحية بعد عامين طيف من الذكرى ، بعيدة عنه كالنجوم. وطن الشقاء والملــل والحياة الرتيبــة ، هي ذي الآن تعشب في الذاكرة يرميه الحنين الشفاف فيها زينب وفطوم وعليا بنــات الحرام يلطين ليلا في الازقة واذ يمر يصرخن علوش الاصلع علّوش التعتاع ويهربن كم حرق الارمّ وهو يثب وراءهن عله يمسك بواحدة ليريها رجولته في الخرابة المهجورة

– آخ لو انهن عندي في الجماعة »

جميع صحابه في القرية كانوا عاشقين لكل صبيتــه التي يلتقي بها على البيادر تحت ضوء القمر أو يتسلل الى خيمتهــا الصيفية يتحدثان ويتعانقان حتى الفجر

إما علي الراعي الفقير فكان كحجارة الاودية

وهو يثب عن الصخرة صاح بالجماعة اجتما ع

خلال ثوان بدأ التدريب أعيدت التمارين والحركات بعنف لم يشهدوه سابقا ، وعوقب أفراد الجماعة بالزحف والعــــدو السريع وتسلق الاشجار ، وعبور احــدى المخاضات الملوثة ، ومن ثم التمرغ فوق التراب الجاف

– إلى المهاجع رملاً !

أحس بنشوة وغمران بعيدي الحــدود وهــو يراهم يهرعــون

بثيابهم المبتلة المغبرة وهمس لنفسه أنث فعلا مدرب عظيم يا علي الراعي هكذا يفهم الخنازير ان العسكرية ليست لعبا !

★ ★ ★

يوما بعد يوم بدات رتابة الزمن تضجر علي الراعي ، أحسبها تتماثل وايام القرية ، كما وضح له الآن تأخر الهجوم ، وازدادت الحاجات وتذمرات الجنود الظاهرة والخفية فقرر أن يسأل القائد عن الامر

راقبه يوما في الساحة جالسا في ظل خيمته يحتسي الشاي ويدخن تقدم منه وحيّاه تحية انضباطية اهتز لها بدنه ثم جمد كوتد دُقَّ في صخر

رفع القائد بصره بصلف واعجاب ايوه علي ؟

وارتبك علي الراعي تحت حدقتي الضابط ، وراح يتأتيء كلمات مشتبكة

علي مالك أين شجاعتك ؟

قال القائد بحزم

أسترد علي شجاعته ثم رفع رأسه عاليا سيدي متى يبدأ الهجوم ؟

قذف سؤاله بغضب وجدية كمن يعطي او يتلقى أمرا عسكريا هامّاً ، أو كمن يقذف قنبلة الى أبعد مدى ، فشعر بالغبطة

وضحك الضابط حتى اهتزت كأس الشاي وكادت تسقط من يده

ـ علي ما اسم قريتك ؟

ــ الصبوحية سيدي .
ــ منذ متى لم تذهب اجازة ؟
ــ منذ عامين تقريبا سيدي
ــ الم تشتق لأهلك ؟
ــ كلا سيدي
ــ لماذ سألت سؤالك ؟
ــ الجماعة سألتني عن ذلك سيدي

واذ ادرك القائد جدية الموضوع رفع صوته وتجهم : طيب قل لهم ان هذا من اختصاص القيادة اهتموا بشؤون التدريب ولا تتدخلوا في الامور الكبرى انصرف الآن

عندما استدار بعد أن حيّا بطريقة أقل قوة ، دهمته غمّة فتمتم لنفسه أنت يا علي الراعي لست من القيادة اذن

كان كسيفا وهو يترنح فوق أرض المعسكر ينكت الارض براس حذائه ويفكر

في تلك الليلة لم يستطع ان يغفو بين اليقظة والنوم تراءى له رجل ملتحطويل القامة يرتدي ثيابا سوداء وقف فوقه كالشبح: « أنت شجاع يا علي الراعي لم تهب شيئا في حياتك ولن تخسر شيئا لانك لاتملك شيئا سلاحك معك والحدود قريبة علي الراعي من قديم الزمان وأنت تهفو للحرب وهذه أرضك يزرعونها ويقيمون عليها البيوت والثكنات ويستقرون .

أخذت بالهجوم والدفاع لايعيدها هاجمهم يا علي الراعي يهربوا نغص عليهم حياتهم يهاجروا هيا يا علي هيا ابدا حربك ، اضربهم في فرحهم في طمأنينتهم في مخادعهم لن تخسر شيئا لانك لاتملك شيئا أدر ظهرك للكلمات والضوضاءولاتستمع

الى طنين الجبناء   واختفى الرجل الملتحي

- ٣ -

عندما استيقظ بُهِتَ من شيء واحد   كيف عرف ذلك الرجل اسمه ؟

بعد أن عاد مع جماعته من درس الرياضة الصباحي ، جلس أمام خيمته وراح يحدق في السهول والجبال البعيدة   نضرة مهيبة جريحة تحت البصر ، يقطنها الغزاة منذ عشرات السنوات. على نحو مشوش في ذهنه المحدود ، اختلطت أمور ما كان يفكر فيها في الماضي ، هاهي تحبو الآن على شاشة عقله كالاطياف فتسبب له الكثير من الغم والضيق

أنت يا علي الراعي جندي بسيط لست ببال أحد   جندي يتلقى الاوامر وينفذها   منذ عامين وأنت وجماعتك تنتظرون الهجوم   وها هي تمارين التدريب تتكرر آلاف المرّات عبر آلاف الايام والهجوم لما يأت   والهجوم يجثم في رأس القيادة ربما في المنطقة المنسية من الرأس، وأنت لستمنالقيادة   والجندي البسيط يستيقظ بأمر وينامبأمر ويتدرببأمر ويأكل بأمر ، ينزل المدينة بأمر ويغادرها بأمر ويتزوج بأمر ، وربما كان عليه أن يفكر بينه وبيننفسه بأمر أيضا

وفي لحظة أدرك علي الراعي ان عمره مربوط بسلسلة ذات فروع بلا نهاية ، وان هذه السلسلة تحركها يد خفية ، وهذه اليد تطيل له أو تقصر متى عنّ لها ذلك ، كما أدرك أن بينه وبين قائده هوة سحيقة لاسبيل الى ردمها   وان هذه الهوة ربما كانت تمتد الى بدء الخليقة   لقد أحس بالذعر الحقيقي لاول مرة وهو يكتشف   انه بلا حرية

★ ★ ★

في الليلة التاليةحضر الرجل الاسود. رأى في وجهه عبوسا

وغضبا حمله من فرأشه وطار به في فضـاء تحته غابات وأنهار وفي الفضاء رأى أمه كان وجهها مقطوعا عنجسدها وكان مشوها محفورا بالجراح وشخوب الدم ، وحاول التوقف ليحدثها لكن الرجل الملتحي سحبه بعيدا عنها ، وسمع انينا فاجعا خلفه ثم رأى سحابة مقبلة نحوه وقد علقت بها طيور مصنوعة من الدم والعلق ، وتسلقت الطيور لحمه وفجأة رأى نفسه عاريا تماما فأحس بالعار وحاول أن يختبىء داخل الغمامة لكن الطيور لاحقته وراحت تمتص دمه ، وتلاشى صوت امه وحاول ان يصرخ فلم يسمع صوته ، وامتدت يده لترد طيور الدم والعلق فاذا بها مشلولة عصية على الحركة ، وشاهد تحته على الارض معارك وغبارا ونساء واطفالا عرايا يساقون بالسلاسل ويطعنون ، وكان الرجل الاسود قد تركه يسبح وحيدا في الفراغ وابتعد عنه كان يراه وهو يطير باتجاه الغابات واعترضه القائد فنهره بغضب كي يعود لكنه نحاه عن طريقه وقال له أنت جبان ياسيدي الا ترى طيور الدم تأكلنا وكانت الطيور تحلق فوق القائد ورآها تنقض عليه حاملة قطعا من لحم وجهه ثم شاهدها وهي تسمل عينيه وتتقاذفهما بمناقيرها الضخمة والقائد يصرخ ويدور في الفضاء اعمى سابحا في بحيرات الدم التي تشكلت

وسأله سيدي الا نبدأ الهجوم ؟

فأجاب القائد المصاب لم تصل الاوامر بعد !

- ٤ -

ما عاد علي الراعي يسأل عن الهجوم العام لقد نفد صبره أخيرا فكسر أول حلقة من حلقات السلسلة الفولاذية مجتازا الحدود المحرمة ، بادئا هجومه الخاص

في ساعات الراحة كان يرصد بدقة مواقع اولئك الذين

خدعوا توراتيا بأن تلك الارض لهم ، فجاؤوا من كل بقاع المعمورة ليعيدوا مآسي الحروب الصليبية وليدفنوا فيها

وكان الرصد النهاري توطئة لهجوم ليلي سيقوم به وحده متخطيا طقوس الاوامر القيادية

بعد منتصف الليل في الساعات الاولى من الفجر ، كانت غاراته تبدأ ، وكان سلاحه الاصمت فعالية ، سكينا طويلة حادة ، ونادرا ما يستعمل رشاشه ذا الاخمص القابل للطي وعندما يعود قبيل الفجر كان يتجه نحو مغارة في السفح المجاور للمعسكر يخلي فيها غنائمه الحربية .

ورغم المشقات الليلية لم يتوآن عن التدريب ، بل ازدادت خبرته فكان يعلم جماعته المراقبة الفعالة والتنقل والتمركز والكمين والاغارة والانقضاض والخنق والطعن وسحب القتلى والاسرى والاسلحة ، منفذا الحركات والتمارين كأنه في أرض المعركة بين دهشة الجنود واعجاب قادته وفي احاديثه لجماعته لم يعد يقتصر على كلمة العسكرية موت انما اضاف اليها كلمات اخرى ذات مغزى الانسان الجريء يستطيع ان يفعل اشياء كثيرة الوطن ليس كلمات وحماسة الوطن تضحية ودم الوطن هجوم .حاربونا بالعصابات لنحاربهم بالعصابات كل واحد منا يقتل جنديا غازيا نفنيهم القاتل جزاؤه القتل في شرعنا.

بانتباه وفخر كانوا ينصتون اليه ، وما عادوا يهزؤون من فأفأته وهو يحكي وهجر علي الراعي العزلة ، والاقتراب من الضباط المعزولين عن الجنود والذين بنوا لأنفسهم مجتمعا خاصا في الثكنة والمدينة ، بعيدا عن عالم الجنود وعالم المعركة

كانت الصبوحية قد انطوت تقريبا من ذاكرته ، فأحس بتحول جديد في نفسه ، فهو يستطيع أن يتحرك ويفكر بأوامر تصدرمنه،

غير ان ما كان يكمده أن زمان المعركة سيطـول وستصحبه آلام كثيرة واحزان وكان يعذبه كتمان سـره عن رفاقـه وخشي أن يسألوه مرة أخرى عن بدء الهجوم

وذات غروب طلبه القائد وسأله أن يذهب في اجازة فرفض. فقال القائد : ولكن أنت لم تذهب اجازة منذ قدومك الى هنـا الا تحب قريتك وأهلك يا علي ؟

فأجاب بعفوية كل القرى قريتي وكل الجنود اهلي

وسر الضابط ودهش لكن الانسان يحن الى كوخ تربى فيه

فأجاب فجأة : أكواخنا مسبية ياسيدي

تنبه الضابط موخزا أين قرات ذلك ؟

فقال وهو يشير نحو الارض المغتصبة هناك ياسيدي.

ودّع الضابط الانيق بتحية فاترة ثم مضى الى خيمته

★ ★ ★

تصاعدت عمليات علي الوحش فأفزعت العدو ، وتحدث فـي اذاعتـه عن دوريات مسلحة تهاجـم مخافره ونقـاط استنـاده ومدنييه تقتل وتخطف وتخرب ، وهدد بغـارات انتقامية ردا على هذه الاعمال التخريبية ، ودهشت القيادة لهذه الانباء واعتبرتهـا حججا كاذبة للقيام باعتداءات جديدة

في باحة المعسكر جمعت العناصر وتحدث القائد عن تخرصات العدو وتحدياته « علينا ان نكـون حذرين والا ننزج في معـارك خاسرة أنتم تعلمون ان أحدا من عناصرنا لم يجتز الحـدود الاوامر واضحة فالمعركة لم تبدأ بعد ، والقيادة في طور التحضير للهجوم ومتى انتهى سنقوم بهجومنا الكاسح وعندها لن نبـالي بتهديدات عدونـا اننا ننـذر أي جندي يفكر بمفامرة اجتيـاز الحدود هذا يعني التورط في معـركة غير متكافئـة ويعني

الهزيمة كونوا يقظين أيها الرجال ويوم النصر قريب باذن‌الله ».

كان هناك في الرتل الاخير امام جماعته ، وكان يسمع‌التحذير وكلمات الحماسة وهي تتدافع من فم القائد وتذكر وجهه المدمّى المرتعد في الحلم والطيور الدموية تنقض عليه وتفقأ عينيه وهو يحاول صد الطيور هاهو وسط الجنود يكش ذبابات تحوم حول وجهه وقد ارتسم الغضب عليه بديلا من الذعر

وفجأة داهم علي الراعي شعور مرير بالتوحد ، وبأنه ربما كان مخطئا في عمله

- ٥ -

أعطى نفسه استراحة لمدة اسبوع ، لم يقم خلالها بأيةعملية. كان السر يضغط على جدران رأسه ، ولم يكن قد ناقش لماذا اقدم على التجربة والى متى يستطيع أن يستمر ، وهل يمكن ان يبقى وحيدا يقاتل خفية في معسكر لايفعل الا التدريب والاكل والنوم والانصياع للاوامر ، ثم ينتظر وفكر بافشاء السر لبعض عناصر جماعته الذين وثقوا به كما يبدو

عصر يوم عطلة انفرد بجندي كان يختبره خلال أيام التدريب، وهمس له لاتنزل الى المدينة لدي ما أقوله لك

وغب المساء اتجها نحو السفح بحذر شديد

عقلت الدهشة لسان الجندي وهو يرى ما في الكهف ، وبعد أن انتهى علي من اغلاقه بصخرة محكمة روى له السر

قال له وهما يجلسان قرب الكهف لن تفشيه طبعا والا

وقارب كفه من رقبته بحركة خاطفة تشير الى الذبح

وقال الجندي بلجاجة ولكن هذا   عمل خطير

فقال العريف الفخري بثقة خطير أو غير خطير . لقد حدث

وليكن ما يكون   هل تشترك معي ؟

وتساءل الجندي   والقيادة ؟

قال علي الراعي   القيادة تنتظر اوامر القيادة الاعلى   والقيادة الاعلى تنتظر الاعلى منها   وهكذا

واستطرد   كم مضى عليك في هذا المعسكر ؟

ـ عامان تقريبا !

وقال علي   ومن كان قبلك   وسلفه   وسلف السلف ؟ عطب البارود ، والحراب صدئت من الانتظار والجنود نسوا الحرب ما عادوا يفكرون بغير الاطعمة والرواتب والاجازات والزواج والنزول الى المدن الجميلة   الى متى ؟ انا كنت مثلك   نحن مخدوعون

وسأله الجندي   ولكن أتعتقد ان هجومهم لن يبدأ ؟

قال علي بوثوق ذاتي اكثر   سيان   المهم ان نبدأ نحن هجومنا

ـ ولكن أليس هذا مخالفة غير انضباطية ؟

فابتسم علي الراعي وربت على كتف الجندي   لاتفكر كثيرا فيما يقولون ويأمرون   ان هي الا حكاية قديمة مسلية تشبه حكايا الجدات الخرافية للاطفال في الليالي كي يناموا   ولقد اعتادوا روايتها علينا منذ عشرين عاما   صمّت آذاننا ونحن نسمعها

ان أحدا ما لايأخذ على مسؤوليته أمر الهجوم الكبير صدقني هذه هي الحقيقة الساطعة

كان المساء قد زحف الآن وغطى المرتفعات والسهول ، وأمامهما كانت ترى أضواء خافتة وحركة آليات عدوة لم تكن تتحرك في النهار

نهضا عن الصخرة وانحدرا صامتين نحو المعسكر

بعد منتصف الليلة الثانية تسلل علي من فراشه كعادته واتجه نحو مهجع الجنود ، لكز الجندي النائم فهب من فراشه ورأى الجندي وهو يفتحعينيه ، شبحَ رجل يقف فوقه. وضع العريف كفه فوق فمه وهمس له : انا علي هيا . بسرعة .

كانت ليلة باردة وكان علي يحمل كيسا وسأله الجندي عنه فأجابه دعالاسئلة وتعلم منذ الآنكيف تفتحعينيك جيداواذنيك وان تصمت

وقبل أن يجتازا الحدود أعطاه تفاصيل المهمة ، ثم ناوله من الكيس ثيابا عدوة وارتديا الالبسةوتأكد علي من سكين ورشاش وذخيرة الجندي ثم وضع يده على صدره كان قلب الجندي يخفق بتسارع واضح فهمس له ضع خوفك تحت حجر هنا وعندما تعود خذه انا اعرف تلك الارض معرفتي بساحة التدريب

واجتازا

خلف شجرة في حديقة كمن الجندي وراح يراقب في الظلمة بينما تقدم علي داخل المعسكر

لم يكن خوف الجندي قد هدأ تماما ، لكنه كان مطمئنا لوجود علي : اي انسان هذا الرجل الذي يدخل مراكز الأعداء ولايرتعش هل من المعقول انه لايخاف ؟ الاسد يخاف ناهيك عن الانسان ابي كان يقول الانسان لايخاف الا انساناً مثله واذا ماعرفوه ؟ والله هذا المقاتل اقوى من الموت اليس حراماً أن يموت الرجال الشجعان لو أطلقت النار عليه هل أتركه وحده ؟ معي خمسة مخازن وتلمسها ثم عدها ولامس برؤوس أصابعه قبضة السكين فأحس أمانا محدودا

كانت الارض طرية والشجرة فوقه تبدو من فتحاتها الغيوم ، وجواره كانت الظلمة وكان وحيدا ينصت لصمته المصدي ولآيـة نامة ولخوفه . كانا وحيدين فوق أرض يطؤها آلاف الاعداء . وخيل اليه انه سمع حشرجة خاطفة فتوثب ملامسا انحناءة الزناد وحدق اكثر كانت قدماه تصطكان الآن ونبضه يتسارع بينما جبينـه يلتهب

وعاد علي حاملا الكيس فوق ظهره واذ اقترب اعطى كلمة السر، وعبرا في العودة طريقا اخرى وتناوب الجندي حمل الكيس في منتصف الطريق فأحس ثقله وكروية مابداخله يتأرجح على عموده الفقري خلال العودة كانا كغريبين ولا كلمـة حتى اجتازا خط الحدود قال علي مازحا بامكانك ان ترفع الحجر وتتناول خوفك الآن واخذ منه الكيس متجها نحو الكهف. ثم قال اسبقني الى المعسكر.

وصاروا ثلاثة ثم أربعة وخشي علي أن ينكشف الامـر اذا ما ازدادت العناصر كما توقع صدامات وخسائر مع العدو ، فأوقف الانتساب السري على خمسة من الجماعة ، دربهم واحدا تلو الآخر على الدخول واشركهم في عمليات خاصة قاسية ودامية حتى تصلبت نفوسهم وتحدت الخوف والرحمة وأعلمهم بأنهم اصبحوا الآن رفاق الموت .

باستمرار كان أحد الافراد يسهر ويتجول في باحة المعسكر وعلى تخومه يراقب منتظرا ردود فعل العدو وحتى ذلـك الوقت بدا أن كل شيء كان يتم بهـدوء في الـداخل ، وكان التـدريب مستمرا لكنه ازداد قساوة وتنوعا في جماعة علي ، بينما ظـل على وتيرته في حياة جميع أفراد المعسكر الآخرين

كـان الرفاق الستة متميزين في القـدرة العضوية ، وقـد بدا ذلك واضحا خلال تدريب السرية بكاملها في الرياضة والعبور

والتسلق وتمارين القتال والمسيرات الليلية ، وكانت نفوسهم صافية كالفضاء لاشكاوى ، لاتذمر ، قبول مايطلب منهم بروح عالية ، وتنفيذه ، ولم يفكروا منذ بدأت عملياتهم السرية بأية اجازات أو نزول الى المدينة

شيء واحد كان يؤرق نفوسهم لو انكشفوا !

وخلا الستة كانت المدينة تستهوي الجميع كانت المدينة محطة راحة وطمأنينة وشهوات لاتنقضي ، ولم يكن فيها حرب وفي أيام العطل كانوا يخرجون الى البراري والهضاب المشرفة يتحدثون عن أعمالهم ومستقبلهم وعن الاحتمالات ، وكان علي الراعي يقول صدقوني أنا لاأخاف العدو اكثر من الصديق . يبدو انهم قد تخدروا هنا أو أصابهم الشلل أو دخلوا احدى حلقات الذكر يتحدثون كثيرا وقليلا مايفعلون بحرارة يحكون عن الماضي وتجارب الناس ثم يختمون ذلك بحماس انتظار أوامر القيادة ويسأله أحد رفاقه الى متى سنستمر في أعمالنا السرية ؟

فيجيب علي الى ان نقوى اكثر أو يحدث الهجوم الكبير

ـ لكنك قلت أن ذلك لن يحدث

ـ سيبدؤه العدو يوماً

وكانت الصبوحية بعيدة جدا الآن ، كذلك قرى الرفاق الرعاة الذين اتجهوا منذ سنوات باتجاه الحرب لاجتياز الحدود كانت الصبوحية آخر حلم يحلم علي الراعي بالعودة اليه ، لكنه كان فرحاً في أعماقه لانه كان أول من خرق الهدنة وعبر التخوم الوهمية لم يكن لعلي الراعي تذكرات هامة ، حتى ماضيه كان من التفاهة بحيث لايدعو الى الحزن على شيء كانت حربه التي بدأها بطريقته الخاصة ، والتي تخطى فيها الاوامر ، وقادها،

هي ماضيه وحاضره ومستقبله ، وكان قد ادرك تماما بأنه وقع مع رفاقه وثيقة الموت بلا أسف

وكانت المدينة الآن ، قريبة جدا ومشعشعة بالاضواء والخمر والنساء العذبات والسيارات والشقق المريحة ومكبرات الصوت والصخب المتواصل

كان اليوم يوم جمعة وجميع الضباط وكثير من الجنوديمرحون وينسون ويطاردون الشهوات التي لاتنقضي

وفجأة لمحوا رفيقهم الحارس يعدو نحوهم فهبوا واثبين وجروا إليه كان يصيح العدو العدو العدو يزحف نحونا وعدوا باتجاه المعسكر وصاح علي بمن في المعسكر بصوت متوحش العدو الى السلاح وكسر المستودع وراح يوزع على الجنود البنادق والذخيرة والقنابل اليدوية واوعز الى أحد رفاقه أن يتجه بالجنود الى التلال المجاورة ويتمركزوا هناك

وخلال دقائق أتم عملية التوزيع والتحق برفاقه نشر الجنود مجموعات على راس كل مجموعة وضع رفيقا واعطى تعليمات بقتال العدو حتى الموت وهدد من ينهزم بالرمي والقتل وجاء تمركزه على نحو لاشعوري قريبا من الكهف مع مجموعته

وبدأت المعركة

- ٦ -

لم يصدق علي الراعي ماتراه عيناه في البدء غير أن الوجوه المنقبضة وعلامات الحزم والصرامة وهذه الكلمات الحاسمة ذات الايقاع التاريخي الجاد ، والحرس ذوو القبعات الحمر يحيطون به جميع هذه الطقوس المنبئة رمت في قلبه الذي لم يهب يوما نوعا من الفزع الحقيقي وغمرته موجة حزن عميقة القرار وهو يرى نفسه مطوقا متهما بتخطي وخرق أوامر القيادة

لقد وقع اذن وهو جريح وشعر بانه وحيد الآن يواجـه اناسا آخرين عيونهم مصوبة اليه وهو أعزل لايعرف الا القليـل من كلمـات اللغة وكـان السؤال الاول : منذ متى بدأت تجتاز الحـدود

ولأنه لايذكر التاريخ تماما اجاب لاادري

وسئل لماذا خرقت الحدود ؟

وقال بسذاجة لان العدو كان هناك

وأجاب على سؤال هل تعترف بانك تخطيت اوامر القيادة ؟ بنعم

وعلى سؤال وهل كان سلوكك تمردا ؟

بـــلا

وسألوه هل اردت أن تكون بطلا ؟

فنفى ذلك

ـ لماذا قمت بتنظيم سري اذن ؟

وجم ثم نظـر نحو الارض تذكـر رفاقه وليـالي التسلل الى المستعمرات والمعركة الاخيرة التي دحر فيها العـدو ، وشعر بجرحه ينقز « أين هم الآن » ؟

وأعيد السؤال فلم يشعر بضرورة الاجابة عليه فظل صامتا

كان الحزن يفور الآن في نفسه ، فيشعر بالعزلة وكأنه منفي في صحراء بعيدا عن رفاقه ، عن أمه ، عن الصبوحية التي علمته براريها وقسوتها وسماؤها كيف يكون جريئا صافيا كينابيـع الأودية .

وهمس لنفسه « ماأكبر خديعتك ياعلي الراعي ! »

وسئل هل استخدمتم ذخيرة أكثر من المخصصة لكل جندي ؟

فقال : نعم

ـ ومن أين حصلتم على هذه الذخيرة ؟

فقال من مستودع الذخيرة

وسئل أشرح لنا كيف كنت تسطو على المستودع

وسأل مستغربا عن معنى كلمة تسطو فأجيب أي تسرق ودهش من سماع هذه الكلمة فنفى أن يكون سارقاً وقال أمي تشهد بأنني لم أسرق بيضة في حياتي واجتاح القاعة موجة من الضحك

تجهم الرئيس ونقر سكو..ت

وبدأت الاسئلة من جديد عن المعركة الاخيرة وكسر المستودع وقيادة الجنود لماذا لم تبلغ الضابط المناوب عن العدو ليتصرف هو باعتباره أقدم منك واقدر على القيادة ؟

وود أن يعترض على كلمة أقدر لكنه قال نسيت ذلك في غمرة الاسراع لمواجهة العدو

ـ هل تعلم بأنك تسببت بجرح جنديين انت أحدهما وفقد آخر

وجمد نظراته في السائل لمدة ثوان معدودة كتم صرخة ولم يجب

في اليوم الثاني وفي اجتماع الظهيرة تلي أمر اداري على جنود السرية الرابعة يتهم علي بن سويلم الراعي من قرية الصبوحية احدى قرى الوطن العربي المحتل بالتهم التالية

١ ـ خرق أوامر القيادة العليا للجيش والقوات المسلحة

والمغامرة بتخطي الحدود للقيام بعمليات نهب وسطو أدت الى قيام العدو بهجوم على احد معسكراتنا

٢ ـ تشكيل تنظيم سري في المعسكر رقم (١ والتحريض على العصيان ودخول مستعمرات العدو بالقصد ذاته المبين في المادة رقم (١)

٣ ـ التصرف بذخيرة المعسكر سرا لصالح الجماعة التي شكلها المتهم بدون علم القيادة

٤ ـ تخطي من هو أعلى منه رتبة وكسر مستودع الذخيرة والتصدي بعدد ضئيل من الجنود لسريتين من جنود العدو مما سبب جرح جنديين وفقدان آخر تعتقد القيادة أن العدو أسره والجندي المفقود يحمل أسرارا عسكرية في غاية الخطورة قد يضطر الى افشائها تحت الضغط والتعذيب

ان القيادة بناء على ماورد في التهم المبينة أدناه ، وحرصا منها على سلامة الوطن وجنوده ، وحتى لاتتكرر مثل هذه المحاولات الفردية المغامرة ، التي قد تورط الجيش والشعب في معركة لم يتم الاستعداد لخوضها ، وتثبيتا للقيم الانضباطية ، وحتى تحفظ هيبة القيادة وتنفذ أوامرها بحزم وشدة

حكمت على العريف علي بن سويلم الراعي

١ ـ بالتجريد من رتبته العسكرية

٢ ـ بطرده من القوات المسلحة

٣ ـ بزجه في معسكرات الاعمال الشاقة لمدة

لم يسمع الجنود مدة الحكم كانت أبصارهم معلقة على مدخل المعسكر وقد بدؤوا يهمهمون باصوات مرتفعة

كان الجندي المفقود يتقدم بتثاقل جارا وراءه مدفعاً ثقيلا

وعلى كتفيه عــدد من الرشاشات والبنادق   كان يقترب مــن الساحة وابصار الجميع معلقة عليه والدهشة تتخطف الجميع.

بدا ُمنهكا وثيابه مبللة بالعرق وهو يلهث محني الظهر تحت حمله

نسي الجنود المجتمعون الأمر الاداري فوثبوا نحوه ليساعدوه وبهت الضابط فتراخت يده التي تحمل الأمر وهوت على جنبه

واذ وصل الجندي الساحة هوى اعياء على الارض

تقدم الضابط منـــه ورفعه قليلا فسقط الامر فوق الغبـــار وراح يمسح عرقه وطلب له ماء فسقوه وسأله الضابط بذهول

من أين جئت بهذه الاسلحة ؟

فتمتم   من مغارة علي الراعي

ـ هل بقي هناك أسلحة ؟

فأجاب بخفوت تعب   أجل   ورؤوس أيضا

القتيـــــل

منذ زمن طويل وأنا أفكر بهذه القصة لم تكن جميع النوافذ مغلقة غير أن عشرات الكوى التي تتسرب منها الاشعة باتجاه ذلك العالم العضوي والنفسي ، كانت تربكني وتضعني أمام اختبار رديء وموحش في الوقت نفسه

أعترف مبدئيا أنها عملية ارتياد صعبة ، لكنها مشوقــة وخطرة هل جرب أحدنا يوما امساك الذرات السابحة فـي مسار ضوء شمس يخترق نافذة غرفة رطبة في الشتاء ؟

في طفولتي اذكر انني جربت ماهو اكثر استحالة أن اعدو بلهفة غريبــة لأعبر تحت قــوس قــزح غب يــوم شتــائي سطعت شمسه

كانت جدتي تقول من يمسك قوس قزح ينج من المـوت بيقين مطلق كانت تقول ذلك ، وباليقين نفسـه كانت تدرك أن أحدا لن ينجو

منذ زمن ليس باستطاعتي تحديده عرفت هذا الرجـل الغريب كانت معرفتي به تشبه مسار الـذرات عبر ممـر الشمس ، أو رؤية ألوان قوس قزح الرائعة يسكنني ويخرج مني متى شاء ، يعترضني في أي مكان ، ويحدثني بغرابة عـن جميع الاشياء ، لكنه كقوس قزح ظل عصيا على اللمس

بدرجة مختلفة أحببته وحزنت عليه ابان تعارفنا في الازمنة الاولى كـان فتيا شرسا مغامرا في آن ، وفي آن كـان يبـدو هادئاً مستسلما كامرأة اذلها الاغتصاب وفي الآنين لم أكرهه.

الآن اذ أرنو اليه أكاد أصعق ضيق وخوف يطوقاني سحنة غريبة عديمة اللون حدبة كريهة تتقبب فوق ظهره عينان احتلهما العار طاردا منهما الومض القديم ثم هذا الوجه المشوّه وقد ناح فيه العذاب وكل الذل

والآن الآن فقط أكاد أمقته ماالذي دهاه ؟

من قديم ، قديم ، هبط هذا المخلوق من عالم بعيـد قالوا انه اتى من الغابات ، وآخرون قالوا أنه هاجـر مـن الصحـراء وقسم ضئيل مـن سكان هـذه المدينة تكهنوا بانه اختمر مـن الارض ، ثم بفعل العواصف والامطار والرعود صار الى هـذه الهيئة شبه البشرية

لم يكن يعرف ميلاده أحد ذات يوم فوجئوا به وفيمـا بعد اعتادوه ، ثم مع الزمن صار كالمطر والريح والشمس ،ونسوه . جميع الناس عرفوه . كمد البحر وجزره ، بل كان البحر في غضبه وصمته .

تعايشنا زمنا قبل ان يصير الى ماهو عليه الآن عاش معي في اليقظـة والحلم ، في الطفولـة واليفـاع ، وعلمني أشياء كثيرة ماأزال اذكر تلك الليلة التي جاءني فيها وكنت قد قررت أناعتزل الناس وأعتكف في غرفتي لأن الناس جميعهم أشرار وأنانيـون والانسان في هذا العالم يولد وينمو ويموت وحيدا كشجرة في صحراء ، وأن الحياة مهما بدت حسية وحادة في الصفحـة الأولى في الصفحة الثانية تبدو مجرد وهم أو حلم

يومها وأنا اعبر تلك المـرحلة المختلة اليائسة ، حضر حدثته عن حالتي وقلت بانني يائس من كل شيء في هذا العالم وانني ساظل في هذا الجحر انام واستيقظ ، آكل وابول واتغوط ، اتأمل الجدران واللاشيء وأمضغ الضجر حتى اموت يومها اتهمني بالمرض والعجز عن المشاركة وانني اناالاناني ولوان جميع البشر فعلوا مثلي لاستحالت الحياة ولصار الانسان كالحجارة وانقرض النوع البشري عن الارض، ثم اهاب بي أن أخرج من عزلتي وأرمي بهذه الافكار السوداء في البحر

في كل لقاء بيننا كنت اخسر وكان ذلـك يشبه موجا يندفع نحو صخرة ، يَحتـها ضربة اثر ضربة حتى تتشكل كما يريد الموج لاكما تريد الصخرة

كان يطرح علي اسئلة محرجة ومخيفة حول الحب والموت والفرح والشقاء والزمن والاحلام والخلاص ، وكانت اجوبتي تخاتل حول اسئلته تحت ستار أن هذه الامور الصعبة يمكن ان تعاش اكثر مما يُفكر بها ، وأن التأمل المضني حول مثل هذه المسائل يحيل الحياة الى جحيم يمتص نضارة الانسان دون الوصول الى قناعة نهائية ، وانا انسان بسيط كل ماأبتغيه في الحياة عيشا سهلا وعمراً تشرق الشمس خلاله وتغيب دون أن تمر في طور الكسوف

بحزن كان يتملاني وانا احكي . حزن ممزوج بشفقة .

— آه كم انت تعيس انا حزين من اجلكم جميعا

واذ سألته لماذا هو حزين، اكتسى حالة كانت مزيجا من الشعر والفلسفة ، وراح يتحدث عن الناس المرضى الذين يموتون برغبة داخلية تستبطنهم دون أن يدركوها خلال الزمن ينسجون موتهم كما تنسج دودة الحرير شرنقتها وسمّى تلك الرغبة بالخوف الخوف المنبس في حليب الأم ، والجاثم بين الطفل وابيه الخوف المطل من عيني معلم المدرسة ، والمتربّص في خطوات الفتاة الماضية للقاء حبيبها الخوف الذي يغلب أمة كثيرة العدد في حرب مفاجئة ثم يضيف منذ الطفولة تبدأ الانقسامات داخل النفس خلايا تضمر لأنها لاتمارس وظيفتها وخلايا تنمو على حساب الاخرى على هذا النحو تنقسم الغرائز الى خلايا ضامرة وخلايا نامية ومع الزمن تكتسب الوانها الخاصة ويسألني ان كنت لاحظت يوما الطيف الضوئي بحركة ذراته وامتزاج الوانه وتداخلها ، فأجيب بالنفي فيشرح لي ان اللون الاساسي موجود لكنه منقسم الى عشرات الالوان الاخرى لكن هذه الاشعة الجديدة تنفي اللون الاساسي لاتنفيه تماما انما تبدده لم يعد هو هل تفهم ؟

أهز رأسي يمينا وشمالا. تغزوني حالة من صعوبة الادراك. هذا المخلوق يطلسمني أحسني ذرة مقذوفة في فراغ وهذا المخلوق الغريب ريح يرفعني عاليا عاليا نحو سماوات سبع طباق يريني العالم ضبابا وهيولى ينوس بي بين الفجر والليل بين الشك واليقين يعطيني السر الذي يشبه شعرة الجحيم والنار ويقول هو ذا صراطك أمشي لست في الفضاء ولا على الارض لا حالم انا ولا يقظ ابدو كأنما على التخم الرفيع بينهما وفجأة يهوي بي في منحدر الشمس نحو البحر

« الناس هنا ليسوا هم كانوا في زمن ما ، لكن الانقسام

حولهم. دخلوا شبكةالطيف الضوئيللخوف. الخلايا الاساسية هوت تحت الشبكة وضمرت وفي مدار الطيف نمت الخلايا الفرعية الحياة نفسهاأفرزتها ليستمر قانونالموت فيالخوف. انا أتحدث اليك عن الجواهر عن تكوّن الذرات الاولى في الصحراء، يوم كانت الدنيا غمرا ثم صرخ أول طفل تحت الريح والشمس ثم حبا ثم مشى ثم امتطى أول صهوة ثم طعن أول عدو ثم انتشى ثم اغتيل ثم سقط في الصحراء

منذ ذلك اليوم غزا الناس الاطمئنان ركنوا تحت مظلة خوف لايدركون خطره كلكم تغفون تحت قشرة هلامية اسمها الزمن المنسي هل سأل احدكم يوما نفسه عن الزمن الحي والزمن الميت وفي أي منهما يحيا هل أدركتم يوما معنى الجوع والعطش والسجن والارق والعري والقتل والخيانة قم وانظر من نافذتك انظر اليهم كيف يتسارعون في الشوارع خوفا من الخوف، خوفا من الجوع والعطش والسجن والأرق والعري والقتل والخيانة، لكنهم بعد حين يقعون في الفخ لقد نسوا من هم، لو فتشتهم جيدا لعثرت على هوياتهم المزورة ان أحدا منكم ليس ابنا شرعيا »

- ٢ -

ارتجت باب حجرتي جيدا وانحدرت في مدينة اللقطاء كل أفكاري القديمة عن الحب والفرح والعفوية والبراءة والاخلاص ماتت هبطت كما قال ذلك النغل نحو الطبقة المظلمة من البحر.

أعوم في الشوارع بين الامواج البشرية الناس مسرعون لكن الخوف مرتسم في قسماتهم حركاتهم مضطربة كأنما هم مطاردون احاول ان اسأل احد المارة يرنو نحوي بازدراء ثم يخب خطاه ولا يجيب لا أحد يتحدث الى احد الكل ماض عبر

تيــار خوفــه

« ــ ما الذي دها الناس » ؟

فجاة اشعر بأنني خائف   احاول أن أمــزج خوفي بخــوف الناس لتعبرني حالة اما ن، لكن الناس يمضون سراعا وانامتباطيء . في الشــارع القى الصديقة التي احببتها بــكل ما ملكت نفســي أسالها ماذا جرى   فتسألني عن العقد الاخضر الذي وعدتها بــه فاقول لقد هوى من يدي خطــأ في البحــر   تندهش وتقــول كيف سأرتدي فستاني الجديد بدونه ؟

اقول   الست خائفة ؟ فتشرح لي بأنها ما ضية الى غرفتي وانها قد اشتاقتني وان علينا ان نسرع نحو البيت لننام معــا عاريين قبل أن نموت   باقتضاب افهمها بأن حكايتنا انتهت وانه ما عاد لنا زمن من أجل الحب وأن الحب لا يحيا في أزمنة الخوف   خذي كل ممتلكاتك ضعي فيها حبنا القديم واقذفيهــا في البحــر

تتهمني بانني صرت لامباليا وانني اخطأت خطأ فادحا برمي العقد في البحر وانني تحولت عنها   تحت ثديها الايسر أضع كفّي فاحس وجيب قلبها   انت ترتعشين من الهلع يا عزيزتي هل لك ان تعطيني هويتك لابدلها لك قبل أن تموتي ؟

ترنو نحوي باستغراب   هل فقدت صوابك ؟

اقول : لا   انما انت ستموتين قبل أن تصلِي

وتمضي عني   ارقبها   خطواتها سريعة وخائفة   تتلفت نحوي مذعورة حزينة وعلى ناصية الشارع تموت

لست أدري الى أين   صار الخوف هاجسا وسفينة وجوه الناس تقمصها الخوف وتحت الخوف بشائر موت مبهم الآن ارى هذا الوباء كذرات كانت في حالــة كمون تحت طبقات

منسية   الذرات قذفت بمحرض هيجها وبعثرها فارتفعت كفقاعات داخل زجاجة محكمة السد   أكاد أحس بأن آلاف الزجاجات موقوتة   في العيون ارى التوقيت وداخل البيوت المطمئنة   خوف وتوقيت   توقيت وخوف وتعود الدنيا غمراً تعود الدنيا صحارى   صحارى

تعروني فكرة تجتاح مفاصلي   لو عدت الى بيتي واستلقيت على الفراش فسأموت   لو ولجت مقهى وجلست على كرسي سأموت   لو دخلت مطعما وانا آكل سأموت   لحظة الجنس هي الاخرى هاجس موت   أمضي   الحركة قد تكبح الموت . اعبر حديقة تنتصب فيها اراجيح اطفال   الاطفال لايتأرجحون ، في طرف الحديقة تجمهروا حول طفلة   الطفلة عارية والاطفال حولها في حالة هرج واقتتال   بين فخذي الطفلة الحريريين دم يسيل وفي أيدي الاطفال امواس تلمع ببريق خاطف   الطفلة تصرخ وعلى وجهها المستلقي كل هلع العالم   حولها يرقصون وقد أشرعوا امواسهم   بعد حين ينقضون عليها ويبدأ الطعن   أهرع خارجا من الحديقة   صرت خوفي   كالقدر أراه بهيئته المحزنة المشوهة احاول ان اهرب من وجهه   يسد عليّ المنافذ   يقهقه   حيثما ولّيت وجهك ثمة أنا   الهرب لا ينجي   ملجلجا أقول من انت ؟ بسخرية يرد   صديقك القديم   ها   ها   ألم أقل لك انكم تعيشون في الزمن المنسي

يذكرني بالخوف والموت في النفوس التي خيل اليها أنها تنجو بالركض والهرب غافلة عن قانون الزمن والتحول ، ناسية ان الموت يطالها ولو داخل ابراج مشيدة   ثم يشير الى الناس هؤلاء الاحياء موتى مؤجلون حكموا على انفسهم بلعنة افقدتهم الذاكرة

اسأله   لماذا تغيرت ؟ فيقول   هم الذين تغيروا   هيا

معي الى ساحة المدينة

ونمضي .

في الطريق أسأله لماذا ماتت صديقتي فيقول بأنها فقدت الامل الناس يموتون هنا لانهم بلا أمل حتى الاطفال فقدوا آمالهم . مع الخوف الأمل مفقود

ـ ولكن متى يعود الامل ؟

ـ مع عودة الذاكرة ، آنذاك يصير للموت معنى

ـ لكن الموت هو الموت

ـ في النتيجة أما الاسباب ؟ هل سألت نفسك لماذا يقتتل هؤلاء الناس ؟

ها نحن في ساحة المدينة حشد من الناس عراة ومحجّبون نساء ورجال. باعة وجنود في مركز الساحة رجلان عاريان يتباريان بالسيوف الاسطحة مكتظة والنوافذ أصوات ترتفع مشجعة جماعات تراهن على الذي سيفوز رجل على الناصية يقرأ افتتاحية جريدة على الناصية المقابلة شيخ معمم معه ربابة يغني وحوله جماعة

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها
قُتِلَ الشهيدُ فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج
والرأس منه على القناة يُدار

صبي مهلل الثياب يستجدي شيئا يأكله شاب وفتاة ينزويان في زاوية ويمارسان الحب

فلاح ينادي على دجاجاته فيضيع صوته في الزحام

في الجهة الجنوبية من الساحة تقف جماعة تهتف بشعارات سياسية ، تقابلها في الجهة الشمالية جماعة اخرى تهتف بشعارات مضادة بين الجهتين شباب وبنات يهتفون للثورة الجنسية صوت مؤذن يتنامى الله اكبر الله اكبر في الوسط المبارزة مستمرة اناس يتفرجون وآخرون لا يعنيهم الامر بين حين وآخر تنثر على المتبارزين زنابق أو فضلات قمامة الساحة في حالة صخب وضوضاء لا مثيل لها وبين هذا الهرج يحاول الجنود ايقاف الضجة فيفشلون

تحتدم المبارزة فيجرح احد المبارزين خصمه تحت عينه يهتاج الجريح وتعلو الهتافات يدور الجريح حول خصمه محاولا رد الطعنة يخيم صمت هَلِع يرتفع صوت الشيخ عبر الضوضاء

وسألهم الخليفة كيف فعلتم به فقالوا جاءنا في ثمانية عشر من أهل بيته ونيف وخمسين من أصحابه وانصاره فسألناهم أن ينزلوا على حكم الامير أو القتال فاختاروا القتال فقتلناهم عن آخرهم وهذه رؤوسهم وسباياهم ، أما أجسادهم فبأرض كربلاء مطرحة تصهرها الشموس وتذروها الرياح وتنوشها العقبان »

ترتفع الهتافات طعنة الجريح تمر تحت إبط الخصم الآخر يزوغ وبحركة بهلوانية يطعنه تحت عينه الثانية . هياج اصوات مختلطة . يتمدد الخوف مع قطرات الدم التي بقعت أرض الساحة الجريح يزداد شراسة فيلوب حول خصمه وهو يهدر ضرباته عشوائية ينقض على خصمه كالصقر لكن الآخر يميل فينبو راس السيف

هناك انا وصديقي القديم صامتان أنا وصديقي القديم محايدان . الحزن بين سيفين مسنونين مصروع لا محالة . انا

وصديقي القديم في نقطة منسية من محيط الساحة مدثران بالحزن فقط

هو ذا الآخر يدور الجريح أعياه النزف حركاته صارت بطيئة الآخر يشرع سيفه يمده نحو الشرفات من الشرفات تأتيه قبلات النسوة وقد رفعن الستر عن الوجوه والصدور يقوم بحركات توحي بالنهاية يرد القبلات بحد السيف اصوات حركة ويصبح خلف خصمه وبكل شبق القتل والجنس يطعن يخترق السيف الظهر حتى القلب فينكفيء المصروع بهدوء المنتصر يقترب منه يرتقي قفاه ويشرع سيفه في الفضاء بين التهليل والهتاف والتكبير وفي لمح البرق يحتز راسه ثم يرفعه على راس سيفه تختلج الجماهير بجنون الدهشة والخوف فيندفع كثيرون نحو الساحة الجنود يرفعون المنتصر على الراحات وهم يصرخون

اختفى صديقي واختفى الناس فرغت الساحة الا من الجثة المقطوعة الراس والصمت بخطا موتية اعبر الساحة وانا منكفيء .

جهيراً جنائزياً يخترق الفضاء صوت المؤذن ثم يتمدد الصمت.

الصيد وحكايا البشر

وراء المدينـــة كهل منذ الدهور الاولى يعيش في كهف عتيق التقيت به يوما وانا عائد من رحلة صيد في وجهـــه سمات القدم ، وخلف بحر عينيه الصافيتين يقوم جلال السنين والمهابـــة

ـ سلاما أيها المحترم قلت

خيل الي انه رمقني من زاوية عينيه واوما مجيبا

كانت رحلتي مضنية التعب افرغ اعصابي من القدرة علــى المسير ، والعطش نبّ في الحشاشة فأيبس العروق سألتــه :

ـ ماء جدّي . الديك ما يبل الريق ؟

نحو أجمة سنديان صغيرة ، رنا دون ان ينبس تحركت نحوها فاذا بزمزمية يقطين مملوءة بماء قراح .

شربت كما يشرب صياد قذف منذ الصباح ساعات ممضة تحت الهجير ، في سفوح ووديان غارت ينابيعها

على صخرة كبساط مستدير استوى الشيخ امامه كتاب قديم مهلهل الصفحات ، اصفرها لكنه فسيح كالسهول راح يقرأ فيه بعد أن شربت استلقيت قرب الكهف فشعرت بحرارة الارض ، وبالرهبة ايضا

ـ لماذا هو صامت ؟

قالت النفس .

وقالت ايضاً : ربما كان من اولئك الذين حكت لي جدتي عنهم .

تذكرت حكاياها واساطيرها القديمة التي كانت ترويها لي في العشيات كهوف نائية مهجورة خلف مدائن الانسان ، نحتت في الصخر ، يعيش فيها بشر عافوا المدن غادروا أجسادهم واكتفوا بالمن والسلوى ينزل عليهم من ضمير الغيب يعمرون آلاف السنين ، ارواحهم تغادر العالم متى شيء لها ، ثم تعود كخطف البصر

كنت انذهل وهي تروي فأقول جدتي اليسوا آلهة ؟ اذ ذاك كانت تنهرني قائلة حاشا هؤلاء يا صغيري الاشخاص النورانيون

واصمت مرتعدا من الخوف ، لكنني اغتاظ لعجزي عن التمييز بين الله والنوراني .

خلال تيار الذكرى انتابني الارتعاد القديم نفسه تمالكت وهمست لا بد ان يكون منهم !

ـ عمي الشيخ هل لك ارض هنا ؟ سألته

تخيلته يرفع عينيه البارزتين ، ثم يشير الى السهول والجبال المترامية ثم يتابع القراءة في كتابه العظيم

مذ كنت صغيرا وأنا ادس انفي في الأمور الكبيرة التي سمتها تلك الجدة : الامور المحرمة

كثيرا ما كانت تهول لي العقاب ، وعندما كنت أسألها

جدتي الاله اليس بشرا مثلنا ؟

كانت تستشيط غضبا ، تتهمني بأن روحي شريرة ، وانني ولد أستحق الجلد على هذه الاسئلة

ويوما أحرجتها جدتي لماذا لا ينزل الرب على الارض ليرى فواجع البشر ، يعيش بين العباد وينسف الشرور ؟ فقمزت كمجنونة وسدت لي فمي ، ثم صفعتني على وجهي وراحت تتمتم أستغفر الله أستغفر الله لا تؤاخذه يا رب ثم انهمرت دموعها ومالبثت أن احتضنتني وطوقتني بحدب لافة ذراعيها وثوبها الرث حول جسدي، وهي ترتعد فرقا من صاعقة ستنزل على بيتنا وتحرقه

في تلك الليلة اطمأنت جدتي اذ حمتني من الصاعقة ، لكن الصاعقة نزلت فوق بيت جيراننا الفقراء ، وقتلت اطفالا ليسوا شياطينا ولا يثيرون أسئلة محرمة

مع الزمن عوقبت بموت جدتي ما عادت تروي لي حكايا وتعلمت أنا الصيد

عندما عاود الشيخ قراءته وتضفر بالصمت ، انتابني الاحساس الابليسي القديم ، فصممت أن أحرج الشيخ بالحكايا :

الجبال كما ترى ياجدي قاسية هناك تطارد الارانب والوعول والتعب يطاردك ، وعندما توشك على الهلاك يفجؤك الصيد ، لكن الريق يكون قد جف واليد خانها التوازن ، على العيون يتصبب العرق ويحرّها ، وهكذا تضيع الطلقات في الفراغ البرّي تصورت أنني أشحت الصمت عنه ان لم تكن روحه قد غادرته استهوتني الحكايا فتابعت أنا صياد ياجدي من قديم الزمان

صدت الارانب والوعول والخنازير ، أطلقت رصاصي على الذئاب والارانب والنمور ، ولم أوفّر طيور الحجل والسنونو ، حتى الحساسين قتلتها ، على قدمي هاتين مشيت آلاف الكيلو مترات ، لحست الندى واكلت حبات البطم المرة ، وفوق نتوءات الصخور تحت الشمس الحادة ، هويت من الاجهاد

جلدي شوته الأشعة فاكمد من سفعها ، واطبق الليل علي في رحلات بعيدة ، فكنت آوي الى جحور الثعالب ، اتكور داخلها وأنام رمقته وانا اداعب ذرات التراب الساخنة ثم افتتها كان صامتا كالحجر لماذا يصمت ؟ قلت في سري

كان الكتاب مفروشا فوق زكبتيه ، وقد تقرفص كمكبل وتدت إليتاه في استدارة الصخرة ، فبدا منفرزا هناك يشاهد المسافرين بلا حراك

كانت نظراته مثبتة في وجهي فسألته أيها الجليل هل لك بسيجارة ؟

استوقفتني اشارة دهشة خيل الي انني لمحتها بين حاجبيه فانكفأت أشعلت لفافتي ، لكن نظراته ظلت مصوبة الى صدري. كالمأخوذ تابعت اعترافاتي تحول الصيد هوسا رسا في وهاد النفس صار حياة ومصيرا المهم ان تقتل وينتشر الدم ، الصياد لا يهمه الا أن تشرق الشمس فوق مذابحه الم تجرب القتل يا جدي ولو لمرة واحدة ؟

صدقني ليس هناك اروع من منظر حي تستل منه الروح وهو ينتفض فوق الارض .

اسمع هذه الحادثة المثيرة ، ولتقل ما تشاء عنا نحن السفاحين الذين التبست عليهم الامور المحرمة فتاهوا في برادي الرب يقتلون بلا رحمة :

ذات فجر ندي همت وحدي في الجبـال الوعرة وكمـا يحدث في جميع الرحلات التعب ، العطش ، القيظ الحارق ، ومن ثم اليأس

حتى الغروب لم اطلق طلقة كانت البراري مقفره لكأن احياءها هجروها فجأة رأيتني أعبر مضيقا على جانبيـه تسامقت صخور مسننة ، وكان قلبي يخفق ، أحسسته يكاد يخرج من صدري ، وكانت الارض تلتهب تحت قدمي

لست أدري اية لعنة رمت ذلك الأرنب في طـريقي ارنب صغير وثب من أجمة ثم ما لبث أن توقف وغرس عينيه في عيني لماذا تحدق فيّ يا سيدي العظيم أأنا آثم في شرعك ؟ قلتذلـك في سرّي

لا ادري سوى أن ما حدث كان ومضة قبل ان يهرب الارنب سددت نحوه وضعطت الزناد تدحرج الفرخ فوق الغبار ودوى الوادي مرة اخرى انهمرت الطلقات على جسد الصغير هو يختلج

مـرة ، ومـرة ، ومـرة وفي دوار المحموم المستثار ، المرمي وحيدا في جحيم البراري ، رحت اطلق حتى تمزق الجلد واللحم وهمـد اختلاج الارنب

لن انسى ما حييت تلك الكوى الارجوانية في جسده الممدد الخامد

اتعرف المسافة بيني وبينه ؟ كالمسافة بيننا الآن !

ــ قل لي سيدي هل لامثالي غفران ؟

في وجه الشيخ لم تختلج عضلة بدا وكأنه اعتـاد هذه الحكايا

لم يتزحزح كأنما ملايين الحكايا تروى له كل يوم ثم تعبـر

كالصدى ، والشيخ سامر الاحياء وعزاء المسافرين منصت لا يريم وتستمر الحكايا

سألته فجأة سيدي هل انت في هذه الضواحي من أمد بعيد ؟

تخيلت راسه يهتز الى الامام هزات رتيبة ثم يعود الى ثباته الاولي وقلت لنفسي ربما من قبل أن اولد وأتعلم الصيد

واذ استمر في قراءة كتابه القديم همست قد يكون عن حكمة الاقدمين علّمه الكثير عن اسرار البشر ، وهو هنا يزود الغادين والبادين بالماء والحكمة ولكن لم هذا الصمت العجيب؟

بعد ان اشعلت لفافة اخرى قررت اثارته بالبوح بسري الذي حفظته لنفسي سنين طويلة :

الارنب الذي قتلته ياشيخي كان انسانا قتلته للتشفي ، ولم يحدث ذلك في برية انما في باحة محاطة بالاسلاك الشائكة أكثر من الفي بشري شاهدوني اقتله

في يوم قائظ كنت سجينا في قفص من الصفيح ، وكان القفص محاطا بمئات الصيادين وقد تأهبوا ببنادقهم المحشوة ينتظرون الاشارة ليطلقوا عليّ في لحظة واحدة

كان الحرس يعتزمون قتلي من خلال الصفيح وبينهم كان قاتلي سيضيع

هل تتصور ان تنهمر آلاف الطلقات على جسدي الصغير ثم يقال وارينا الكلب في موضعه ؟

هيه هيه كم يستحق هذا القهقهة آه لو تقهقه معي يا لصوت المطر والبرد يقرع الصفيح ثم اللحم موسيقى اليس شجيا ايقاع الموسيقى

في تلك اللحظة الراعشة تذكرت اغنيات أمي عن الحب والمطر،
والآن اتذكر انني نجوت وانتحرت امي

ايه ذلك اليوم ما أرهبه ، لو شهدته ايها المحترم

على وجه الشيخ لم ار ايما علامة تبدى وجهه أصم
حرثه الزمن بالوقار والصمت واللامبالاة وللحظة لمحته كجبل
معمم محايد يطل على الدهور من خلال حكايا الناس ، بينما
انطرح انا تحت قدميه كقط مذنب

تمتمت آه ما أتعس البشر

ورغم نمو احساسي الخاطيء بالاختيار حول صلاحية هذا
النوراني حكما ، الا انني لم اتوقف عن الاعتراف

نزعت جزمة الصيد وقد جرحت قدمي فرميتها قرب البندقية:

والذي أذكره ياسيدي المبجل ان اليوم كان يوم هياج
والشمس في مرج الظهيرة والنفوس تصيح صيحات الثأر ، ورايات
عبس وذبيان تخفق في الريح تطلب الدم

كانت القمصان الارجوانية تغطي أجساد الفتية المطروحين
على أديم الساحة كانوا مغمضي العيون لايتنفسون

وتعالى الهياج والهرج هزجا كأعراس الجن في الشوارع
بين الغابات ومن البيوت الآمنة اصوات الباعة والاطفال
والنساء الحوامل. طلقات تختلط بالانين والسقوط على الارض.
والدم يطلب الدم ، والرايات مشرعة

خيط الموت بالنجاة ، والصدفة صارت مهرا أعمى يجمح
ويدوس وانا انتظر دورة الفلك

هل ثمة جدوى من وصف المشاعر وأنا أنتظر في قفص الصفيح مرور الدقائق الخرساء ؟ هل كانت الدقائق تمر ؟

كان الزمن معلقاً على جدار القفص ، وكان معي الفتية الاحياء الذين صادهم الفلك لقد بدوا في ظل الشمس حجارة حوّلها الرعب الى دمى من الشمع عديم اللون

رويدا رويدا خفق خوفي، متمهلا ، متسارعا ثم مالبث أن سكن كالحجر في قعره الخاص

التذكر الولادة ، الاصدقاء ، الحب ، طفو الحياة على سطح الرعشة

ثم النسيان غابة حزن معتمة طوف فارغ فوق بحر من سديم ثم الدوار

مرة أخرى التذكر أمي. صبيتي التي أحببت تحيا أن أعود. أشياء أخرى تعبر خطفاً كالبروق . ثم النسيان

الصفيح لم يثقب لينته هذا الشيء التافه ما زال الهياج في الخارج والدم لا يرتوي وثارات القوم لم تخمد مازلت حيا. أتلمس جسدي الدم تدفق في النبض أهاجر مع الذكرى. هل بقي فرح ؟

ما أتعسنا جميعا البراءة ، الاخلاص لتبني مجدا للآخرين.

ها أنت تموت وحيدا كذبابة تسحق في حيز ضيق أمي الآن بماذا تفكر ؟ هل تعرف لماذا أموت وهل توافق على موتي ؟

وينجر النسيان كفنا أسود كهذا اليوم ، فوق نعش فارغ مـات الكلب

كلّ الكلاب تموت هكذا ، والنفس لاتوقع قرار التصديق

ايه   يا للمجانية التي تحدث فيها الاشياء ، بل يا للتفاهة

أخيرا دار الفلك   تزحزح الزمن عن جدار القفص فرماني في الساحة وفي يدي بندقية محشوة بالطلقات ، وعلى مسافة متر واحد كان الانسان الذي قتلت

كل الرصاصات أفرغتها في جسده   كان بامكاني أن أقتل جميع البشر بلا رحمة   جميع البشر بلا استثناء   أجل جميع البشر   أتفهم ؟

ارهقني الاعتراف وانا أتملى هذا الشيخ الصامت   وراح الضباب يعمم الجبال والغابات البعيدة   وأسراب من الغربان تنعق عائدة الى اوجارها ، وبدأ الاصيل يزحف متعبا فوق السهوب.

كان ما يزال ينهل الحكمة من سفر الوجود. نسأل فلا يجيب.

يحط المتعبون في رحابه ، ينفضون جيوب نفوسهم وهو يستمع. وددت أن أصرخ في وجهه   العقاب ، هل من أجله يولد البشر ؟

لكنني كتمت صرختي وقلت   لاتمل فأنا وحيد تعس أمضني التعب والصيد والبحث عن يقين ، لهذا أروي لك !

- ٢ -

قلت للشيخ   بعد أيام من حدوث معجزة نجاتي ، انقطعت عني الرسائل ، ثم فجأة وصلتني برقية تطلب حضوري فورا سافرت الى بلدتي الصغيرة ، وهناك صعقني النبأ   أتعرف كيف ماتت تلك التي كان اسمها أمي ؟ خيل الي انه يرنو الي بعين سارقة مهتمة فشرحت

خرجت الى ساحة البلدة ومعها سكين وزجاجة   ووقفت في الوسط ثم كشفت عن جمة شعرها البيضاء   وبسطت ذراعيها رافعة رأسها باتجاه السماء وصرخت   لقد قتلوه ، ومزقوا

لحمه الطري الصغير بالرصاص

كانت أمي يا جدي ورعة تتلو الصلوات ، وتبجل جميع القديسين والنورانيين ، واذكر انها كانت ترنم لي مع أغنيات المساء هذه الجملة

اذا وقعت يابني فادع الله يحضر اندبه في الضيق ينقذك من المكاره انه غفور رحيم وسعت رحمته السموات والارض »

لكن الفاجعة أفقدتها الصواب. لقد جدفت يومها أيها الغفور اين أنت ؟ لماذا لم تنقذه أي ذنب ارتكب حتى يموت ، أي ذنب ؟

وانهالت تمزق ثوبها وتطعن جسدها حتى تعرت من آخر قطعة ثم بترت ثديا وقذفته نحو الاعلى خذ حليبك خذ أطفالك

وقطعت الثدي الآخر ورمته في خندق قريب فتناوله كلب مقع حمله بين فكيه وعدا به نحو المقبرة. وراحت تبصق لعاباً مغموسا بالدم

تحاملت فأمسكت زجاجة البنزين ودلقتها فوق جسدها ثم أوقدت اللحم العاري

كانت أمي قد تحولت شيئاً آخر بعد الحريق كومة سوداء ذات رائحة كريهة أمام أعين البشر عندما اندفعت امرأة خاطئة شاقة جموع الشهود وارتمت فوق الجسد الخلاسي الذي خمد عذابه

وفشلت المرأة الخاطئة لانها وصلت بعد فوات الوقت لملمت بقايا من كانت أمي وهي تبكي عليها ، ثم دفنت تلك الرمة من الفحم لم يمش وراء الجنازة غير الكلب والقطة التي ربتها أمي ، وأفتى الحواريون التقاة محرم عليها الدفن والصلاة لانها

خالفت الرب وقتلت نفسا حرم الله الا بالحق ، وذكرها ملعون في العالمين

هذا ما قصته علي المرأة التي أرسلت الي برقية الحضــور ، واخبرتني بأن الناعي جاء يقول لأمي رأيتــه بعيني يمــوت في مجزرة الضحى ثم روى لها بأنه هرب هو من الاسلاك الشائكة خلال المذبحة بعد أن رآهم يمثلون بجســدي واجساد رفــاقي الفتية واثر هربه لم يكن يسمع الا دوي الرصاص وقالت المرأة بأن أمك هرعت نحوي منفوشة الشعر مشقوقة الصدر وكأنمــا أصيبت بمس وراحت تصرخ مريم مريم لقــد قتــلوه الوحوش لاترتوي من الدم صارت الصحارى نحاس والفجــر كالشفق من الثارات ويلاه ابني لماذا يموت ؟

ــ كنت استمع ياسيدي الى مريم وهي تنشج ، وأنا راكــد كمستنقع سمعتها تتمتم من خلال دموعها امضيت الليــل بجانبها أواسيها. كان ليلا مرعبا مليئا بالأنين والهذيان والاصوات. وحتى طلوع الفجر ظلت تهلوس كلمات مبهمة .

وقلت لمريم ايه صادها الموت ونجوت أنا كفى كفى

واقفر بيتنا ياسيدي جللته الفاجعة فغدا اعشاشا لبومات الليل وموطنا للريح والنسيان ، واذاع الشهود أن أرواحا شريرة تقطنه وان شبح عجوز شمطاء محروقة الوجه مقطوعة الثديين، يجوسه في الاماسي ، وأن ذلك الشبــح لايني يعــوي بصوت حيواني لايفهمه أحد ابتعد الاطفال عن البيت ورتع العنكبوت في النوافذ والكوى وسطا الجيران على الدجاجات وصــادوا سرب الحمام الابيض الذي ربته أمي ، ثم مع الزمن تهدم ويبست

شجرة التوت   وفي البراري هامت القطة التي صارت وحيدة فتوحشت وراحت تلتقط الحشرات والعصافير والصيصان الميتة

- ٣ -

هكذا منذ البدء ندور كالافلاك في مدارات التعب   بشر اكثر من النجوم نخضع لقانون جاذبية الاعظم   تنشد رقابنا نحو الملأ الاعلى   تتوتر صبواتنا باتجاه الشيء العصي على الفهم ، وأحد ما لايدرك ما قاله السيد الحلاج   ما فيجبتي الا الله

وبقي الصدق الاعظم والكذب الاعظم متجاورين ، ووحدي ما زلت أعترف

لكن الكهل صديق الرياح والخائفين ما يزال هو الآخر ينتشي بحمام الصمت

يهضم حكمته ولا يفرزها   والتائهون يتكاثرون كجراد أصياف الجوع   متعبون من الشمس والحصاد وعتل الصخور وحمل البنادق ، يحصدون أنفسهم والآخرين ، ويدخلون المخادع المحرمة   يشهدون الزور ثم يرتلون الآيات   يتواكب نسل التقدس والتمجيد للباري ، والدود عن نخر الخلية لا يتوقف

وها أنذا عن الجميع أعترف

حزترقبتي حقيبةالصيد   سللت رأسيمن علاّقتهاورميتها قرب الجزمة والبندقية وحزام الخرطوش وفيها زوادة رحلتي

مرة ثانية استيقظ عطشي ، قلت للكهل   أتسمح لي ان أشرب من يقطينتك للمرة الاخيرة ؟

تخيلت انه أومأ موافقا فنهضت وشربت وسوست النفس: ألا يكفي الماء المتعبين لماذا الحكمة ؟

وتابعت حكاياي شقية حياة الصيادين كما ترى يا كهلي المحترم مليئة بالمفارقات العجيبة ، وأكثرهم لايجرؤ على الاعتراف ، يبنون أقبية من الكلس الهش داخل نفوسهم ويدفنون فيها الاسرار في تلك السراديب المظلمة تكمن حقائق الانسان الذي لايحتاج التبرير ولا الحكمة هناك ترى الدهشة والحب القتل ومدائن الرغبات التي لاحدود لها وهناك يرتفع الكذب الاعظم والصدق الاعظم وفي تلك المدائن مريم ليست خاطئة.

خلف تلك التلال ذات الخضرة الابدية ، التي تراها تنام بلدتنا الصغيرة فيها ولدت مريم ونمت كشجرة غضة لرشاقتها سموها الوعلة ، ولحسنها الانثوي العذب هام بها الرجال المتزوجون وعبدها حتى فتية المدارس رأوها وهي تغنج على طريق العين فاعترضوها، وشاهدوها ترقص في مراسح الاعراس والاعياد ، حارة موردة فتشهّوها بشبق أودى بهم الى نزاعات لاتنقطع

كانت آلاف العيون تتفرس في بهاء وجهها العقيقي أبدا ، وفي الاحلام نالوها دونما اذن أو رغبة منها

ومع الزمن أحس الأب ان ابنته مهددة بالقطع فالفؤوس تدور حول بيته وغضب الرجال الجنسي متوتر ، وفي وجه هذا الغضب المتوحش لن يقف حائل فقرر أمرا

كان النقص قد تلوّى في خلاياه هو الآخر ، وفار الغضب داهمه الدود الناخر والشهوة صارت رمحا ، ثم انقلب الرمح افعى ولولبت الافعى لسانها

عن الخروج حَجرت مريم فافتقدها الجميع ،وسرت همسات.

انتشرت اشاعة وتنبؤات ، وقالت حيزبون مقربة من الاهل

مريم منذورة هبط الملاك على الوالد وهدده إن زوّجها ليحرقن زرعه ويجففن ضرعه ويقطعن ذريته عن سطح الارض قلة من الناس صدقت النبوءة ، وظلوا يرحلون في أحلامهم الى مخدع مريم السري.

ومرت أيام وشهور ، ومريم ما تزال رهينة أصاب البلدة محل اذ غاب عنها المطر ، وقاظت نهاراتها ولياليها فنضبت الينابيع وذوت الخضرة الدائمة وشهرا وراء شهر هاجر كثير من الرجال الى ما وراء البحار وكان جوع شديد كافر

وذات مساء سرى في البلدة نبأ غريب مريم حبلى

هجمت الريبة الى ضمائر الناس فهزهم النبأ ، ناسهم الصدق والكذب بين مداريه، وقالت الحيزبون في بيوت السمّار: نفذ الوعد وعد الملاك حق ألم أقل لكم انها مخطوبة للملائكة منذ الطفولة ؟

ورفض كثيرون البدعة محال حبلى من الريح ؟

تذمر رجل ثم تجرأ الملائكة لا تحبل في الامر سر

وردد معه آخرون علينا أن نكشف السر

وفي أمسية اجتمعت البلدة وقرر عقلاؤها معرفة الامر

أرسلوا وفدا عنهم الى بيت مريم ، لكن الوفد عاد مطرودا ، وقال ان الأب شتمنا وصاح في وجوهنا ابنتي طاهرة ولن تنشروا في بيتي فضيحة ثم وسم أهل البلدة بانهم كلاب وخنازير تريد الولوغ في شرفه

بين الغضب والهياج وفوران الدم نوقش الامر ، واخيرا قررت الجموع اقتحام بيت مريم

وفي ليل عابق بالنجوم والاسى ، تحركت جماهير غلّهـــا الهيـــاج حملت فؤوسها وعصيهـــا ومشاعلهـــا وتوجهت نحـــو البيت المعزول عن البلدة

ـ من اللصوص ؟ صاح الأب

ـ لسنا لصوصا نريد المراة الخاطئة قالت الجماهير

ـ انجاس وشريرون اغربوا عن بيتي

ـ أرنـــا زوجة الملائكة والريح

ـ أعطنا مريم يا يوسف الكذاب

وعلى الباب وقف رجل ضخم صلب القسمات ملفوح الوجه، عيناه تلمعان كالنمر وفي يده بندقية صيد أطل على الشهـــود وزار

ـ ماذا يريد قضاة العالم ؟

وخفق الصمت اغل الكتلة الآدمية ، وتمددت السكينـــة فوقهم فانكسر الهياج

تعالى صوت الرجل بغيتكم يا ذئاب الغاب ؟

احتضر صوت ناء سؤال مريم عن بعلها

غصّ صوت من داخل البيت اسألوه هو

هتف الأب ممزقا خداع السكون غرستي زرعتها صغيرة وربيتها حتى نمت وأثمرت من أحق بثمار الشجرة من غارسها؟ وعقلت الدهشة ضمائر الحاضرين وقال الذهول: أنا غابة الاسرار: حكايـــة سندباد طاف جزائر العـــالم واستلقى بين قشرة الحيـــاة ونواة الرغبة وتابع الأب : من منكم لم يكن راغبا بها يا أبنـــاء سدوم الي تضرعتم أن أكون قديسا يقدم الموائد الشهية ، ولم تطلبوا من آلهتكم ارواء العطش والجوع الساكنين في خلاياكم.

في ظلام الارض تهتم بحثا عن الرضى والقناعة ولـم تخاطبـوا انبياءكم يوما عن حاجاتكم عـن النقص في الضلوع وتشنجـات الليل المخنوقة واستمرار الآثام فوق الارض وبدأ صوته يعود الىطبيعته تذكروا تشهيكم السرمدي لزوجات وبنات جيرانكم واصدقائكم ، تذكروا الموت الصاعق في متصف الزمن قبـل الاوان هل تساءل أحدكم يوما لماذا الخليـة البشـرية معطوبة يقضمها الدود الجائع منذ الدهور الاولى ؟

وعاد الصمت وشاحا يكفن الناس والليل تمتم صـوت أحد الحكماء صاد الأب ابنته

تبعه صوت الى جواره علا أكثر الزاني اقتلوه

وعاد الأب الىهديره المتوحش: عودوا الىجحوركم ياحشرات الارض بـرّروا أفعـالكم أولا ثم شـكلوا المحـاكم صيروا قضاة حماقاتكم السـرية قبل ان تطـاردوا الآخرين بهياجـكم البربري كل نفس تحمل وزرها وحيدة في عالمها بالمعصيـة والرغبة أقسم من يتقدم منكم مثكول

قال صوت احرقوا الفاسق سيرجمنا الرب بالحجـارة والصواعق انتركناه

وقال آخر هذا الرجل يسفه آلهتنا

ونده آخر اثأروا لرغباتكم انتقموا للعدل الرباني عاش الرب وليسقط الزنـاة !

وسافر الصمت متعثرا في دروبه الخفية ثم تمور الهياج والغضب وكبل الرجل الوحيد احس بأنه سينهش وان سورة الذئاب ستفترسه، فقال بصوت عادي قد أكون الآن في المصيدة. لكن كان ما يجب ان يكون ، وفي العالم أيها السادة ما هو أعظم

وأفظع، والخطيئة بعمر الكون منذ وجد الانسان. جميعنا صيادون منذ قابيل حمقى ومبعثرون فوق سطح الارض ، وقليلا ما نميز الخير من الشر تلـك ارادة الخالق

تنمّر الرجال فانقذف مشعل في حديقة البيت تبعه صوت
حكمنا عليك بالموت أيها الزاني

صرخ الأب مذعورا وانا حكمت على اثنين منكم يا حمقى الزمان وارتمى مشعل آخر خلف بوابة البيت أعقبـه هرج وصيحـات مزعت هدوء الليل ، وتحركت الكتلة خطت في عين الأب فصارت قدره الاخير

في أطرافه تمشـّى الموت هادئا عندما انقذف مشعل وارتمى بين قدميه وندت صيحة الموت مطهرك مت لنحيا ! ومن داخل البيت صرخت مريم

أنا فديته

الى يساره سقط مشعل آخر ثم الى يمينه فلم يتزحزح
أضيئت عيناه بشعاع غريب قتل ووجل ورثاء ، هي كـل ذعر الارض وخيانتها، استلقت في المسافة ما بين عينيه والحشد.

وقال العِقـاب أنا حصاد الاعمار في مآتم البشر المتواصلة.
ثم سقطت مشاعل خلفه وطوقته النار

وانبهق التذكر مريم غرسة الشهوة ولدت مني ثم عادت إلي استرددت شهوتي هذا ما حدث للوط في زمن ما بعـد الطوفـان جدي اضطجعت معه ابنتاه ، وانا اضطجعت مـع ابنتي ، وها أنا اعاقب بارثي القديم آه سال الـدم في عـروق الاجيال حتى وصلني يا للمهزلة المؤسية . وحضـر النسيان غيمة السديم والغياب خلف قشرة الزمن الحي

ثم التذكر مريم مرة أخرى. خيبة هذه الجماهير النشـوة

التي انقضت   جرني الذي عمدته وتعمدت فيه   رضاي وكهف عمري في الليالي الباردة

النسيان أيضا   والحشـــد ما زال يدوي كأزيز نحل في يـوم ساخن   مشاعل وأصوات بلهـاء تقرع ليل الاطمئنان والبندقيـة في يدي ستقتل اثنين   اثنان لا على التحديد سيموتان بحماقة ومجانية   خسران البشر المستمر   صيد دائم ولا شيء آخر.

ولطمه مشعل في وجهه   فاحمرت عيناه وسالت دمعـة وداعا يا مريمي   يا حياة كانت هنيئة   وضغط الزناد الأول ندت آهة واختلج جسد ثم تهـاوى   انذعرت الغوغاء وراحت الفوانيس والمشاعل تتحطم ، وتعالى الهرج والضجيج   آهـة شيء ثقيل يسقط   قتلت   يا موتاً يكفن حياة مثقلة   وهجمت الزحوف . وهرعت مريم

- احرقوني معـه

على الأب والزوج ارتمت لتحميه   تشبثت بثيابه وغطتـه بجسدها

- اقتلوني انا أيضا

- ابعدوا الزانية

- كان حياتي ولباسي أيها القتلة

وامسكوا بها   نزعوها عنه

- اهربي يا مريم   صاح الرجل الذي يحترق

وجرّوهـا

انفرد بها نفر منهم في حديقة البيت تحت ستار أيكة مظلمـة ، بينما انهى الآخرون صيدهم

كان الكهل قد غفا الآن   أتعبته الحكايا فغاص في جب نورانيته.
نهضت واقفا والنفس ترنم   أيها اللاشيء العظيم توار في صمتك الدهري فأنا راحل

رميت طرائدي قرب بندقيتي وعدة صيدي   ورحت أغذ السير وحيدا فوق الارض ، وفي مواجهتي الظلمة والنور ورياح اليقين المزعزعة

صيف محترق

« في حزيران الماضي أحرق شاب وسيم مصاب بانفصام في الشخصية نفسه بالبنزين على ايقاع موسيقى زنجية في غرفة مغلقة بعد ان ترك لأمه وصية بسيطة ومبهمة : « العالم مليء بالاخطاء والانسان لايستطيع أن يفعل شيئا . انني اموت لانني لا أصلح » .

ومر عام وليس مثلنا من يتقن رصف الايام ثيابك الملفوحة،
ما تبقى منها ، تنام في صندوق العرس وفي مثل هذا اليوم
هطل المطر صيفا

ولم يكن لي سواك من مخلوقات الرب، وعجوز مغربة العمر

تمضي في الصلوات الليلية زمانها الاخير

ـ أصحيح ان ذلك قد حدث فعلا ؟ »

الحديث من الرعب والمفاجأة بحيث يوقف فعالية الدهن، أكاد اقول يدع الحجارة تنتحب

وما انتحبت أمام الحضور

ـ لماذا ؟ »

لقد مت في اللحظة التي كان المطر ينسكب فيها ، وبالمجانية نفسها

انتحب المطر عني بما فيه الكفاية ، وقال المعزّون كلماتهم التقليدية باجلال مفتعل، وسخف وراثي أصيل ، ورفض الشيوخ ان يصلوا المنتحر مجوسي لاتجوز عليه صلاة الجنازة وتحت سماء دمشق العذبة الحزينة ، شيع الفقراء وحدهم نعشك الذي لم يُصل عليه

كيف حدث ذلك ؟ »

★ ★ ★

من يوم الى يوم ينسى البشر همومهم كل فجر حابل بألم جديد ، فكيف بالعام يزحم عاما آخر ؟

هاهم يسبحون داريهم ، ويتاجرون ، يصفقون في باحات السيرك مأخوذين بالضحك والتثني أما أنا فلم انس كيف حدث ذلك

الكوابيس المفزعة تتوالى كطيور سود متوحشة في ليالي الوحدة وزفير الحريق ينمو ويتعاظم ، مغطيا حدود الافق ،

والناس نيام

ـ الحريق الحريق

وتوقظني العجوز ملهوفة عزلاء كالطفل ، واذ تفيق تتلـو آياتها القديمة ، تسجد وتدعو ، وتسافر الايام

في الايام الاولى حضر بعض الناس صحاب وجيران وأقارب ناح من ناح حزنا ورياء ، تمتموا ادعية وتراتيل حفظوها عن اجداد اجدادهم ، ثم غابوا ومع الثياب المحترقة والعجوز وأشباح الفجيعة ، بقيت

وامتطى الزمن مهره وولى

كلما حاولت التذكر والدخول في شبكة ايقاع خطوات الموت يجيبني حاجز الموت الاصم : لقد مات وكفى !!

ـ « مات محترقاً في يوم مطير »

كان ذلك مفزعا حتى الدهشة ، غريبا كولادة امرأة تحت قصف القنابل

ومع انني كنت اسخر من صلوات العجوز الليلية ، وآخر ما كنت افكر فيه الايمان الا أنني في لحظة الاحتراق ، صحت بوجع ام تثكل نجه يا رب وأنذر نفسي اليك !

وما نجوت

ومع مرور الايام ازددت يقينا بأنني ما ربيتك كما ينبغي كنت ناقصا على نحو أوحى الي أن دمي وحليبي كانا مشوبين

★ ★ ★

من التاريخ في الانسان من الرجل في المرأة ، ومن شهوة الاغتصاب الفج ، ولدت

كان وجهك رائعا كالبدر ، وقامتك ناشبة كنخلة برية في

واحة   واذ خطرت أمام صبايا الحي صحن بنشوة سرية ابن الحرام ما أحلاه

ونموتَ جسدا بديعا

في ليالي غربتي الروحية   اذكر كيف كنت أزحف الى فراشك   أشم رائحتك   امرغ وجهي فوق جبينك وخديك وشعرك وزغب رقبتك   اركع قرب السرير حتى مطالع الفجر وانا ارنم لك اغنيات ربيعية ، وأنتحب ضراعة لتشب

وفي الصباح تدعو ربها جدتك العجوز   أن تكبر وتبقى لنا ، تصير ضابطا قد الدنيا ، قدّ الفرح

في العيون لم يبق دمع   استلّه الزمن والسهر عليك لذا لم ابك عليك في حضرة الموت   وبين الشفاعة والصلوات رحت تورق وتخضر

في كل مكان كان حب الا هنا   وفي كل مكان كانت براعم الحرية تتفتح الا هنا   وبيني وبين والدك لم يحدث اختيار ، وكنت ثمرة القسر الفجة

قهرا زوجوني له   وكنت في الرابعة عشرة   وفي ليلة شاحبة تمخض رحمي بك اغتصابا

اقول ذلك وأنت الآن كومة من لحم وعظم محترق ، رمة في قبر مغلق وقد مر على انتحارك عام كامل   ومن أقصى الارض الى اقصاها ليس مثلنا في البشر من يرتب الايام   من يصنع منها توابيت وأسرة لنسيان الماضي

ـ لماذا جئت قبل الاوان

ـ ولماذا خارج هذه الارض تولد المواليد في أوانها ؟

كان ابوك عاجزا عن نيل بغيته على نحو سوي وصحي ،

كان وحيدا ملفوحا بالحزن والرغبة   تشهاني وكنت تويجــــة في طور الفرح الاول ، فاغتَصبني تحت راية الشــرائع ، فجئت بهيّ الطلعة كالشروق ، حلواً كأولاد الحرام كما يقول عامتنا

ـ « هل كنت مذنبة لانني لم أستطع أن أعطيه غير جسدي ؟ » .

استطيع أن اتخيل الحريق كيف دب الى جسدك ، كيف تنامى زهورا صفراء مفترسة وراح يرعى الجسم الحبيب الذي حرج مني   استطيع أن أسمع تأوهاتك والحشرجات المكتومــة والحــريق ىنسّ في الجلد فتتلوى ياشجاعي العظيم بينمــا النــاس يسبونك   يهزؤون   حفاظا على حياتهم المغتصبة وقصورهم التاريخي

ما الذي بقي لهؤلاء الاحياء في أزمنة القهر

في اللحظة نفسها   والدخان يحجب جراح العالم   يطفيء آخر ذكرياتك عن الناس والحركة ، انهمر المطر على السهــوب والغابات ، غمــر الطرقات والخنــادق سحّ على زجــاج الاحبــة والهاجعين   وفوق خيام المشردين والجنود

مطر   مطر   وحريق   موت وبشائر   سر الحياة الاعظم الذي يشي بالروائح فقط

لكن الذي ما ت لا يعود

★ ★ ★

ـ اسمعي   يجب أن تعودي اليه

ـ لكنه هجرنا وغادر الوطن ؟

ـ سأبحث عنه في كل بقاع الارض واعيده

ـ كلانا لا يحب الآخر

وتصرخ كأنما الحريق يشب في غابات نفسك آنذاك
ـ لكن أنا من يدفع ضريبة الفصام
واصمت تقديسا لألم نحن غرسناه فيك

أيام قاسية وحارة طواف خارج الحدود ، بحثا عن ذلك المهاجر الحزين تلقاه تتضرع إليه أن يعود فيرفض ويمضي بعيدا

وخائبا جريحا ، تعود

ايام تمضي قراءات وموسيقى وخمر موسيقى الزنوج المتوحشين المقهورين ، موسيقى الغضب والسقوط في آلا باما والمسيسيبي ، في غرفة مغلقة وانت وحيد ومحاصر

تلك كانت هوايتك قبل أن تلتحق بالجيش

ـ هل قلت المطر

في عصر الحزن والموت واللجوء ، يهمي المطر يعيد للارامل ذكرى ازواجهن ، للعشاق رائحة الحب في الحدائق والجبال ، للمغتصبين أمل العودة ورائحة المزارع النائية اما انا فيذكرني باللحظة الزمنية التي نازعت فيها في غرفة مقفلة ، اللحظة التي تحملت خلالها ثقل آلام الارض مجتمعة ، ثم انطفأت

لماذا هنا بالذات من أقصى الارض الى اقصاها ، الزمان المحزون يقذف لقطاءه الناقصين الى الوجود ؟ ولماذا نحن في وطن مكسور الضلع ؟ سألت الطبيب يوما عن حالتك فقال : مرض وراثي ينتقل عن طريق الدم نوبة الانفصام تستمر خمس دقائق فقط ، يشعر فيها بالاضطهاد وكراهية العالم ، فينعزل عما حوله تحدوه رغبة طاغية في الانتحار واذ تمر الدقائق الخمس اما يعود سويا أو ينتهي

ومرت اكثر من دقائق خمس

ساعات وايام وشهور وسنوات الصيام والصلوات

التشهي والصخب والتهم ثم نسيان المطر والحرائق ، والخيام المزتوتة تحت الريح وما نزال غفاة

★ ★ ★

كنت مغبونا في عصر ذلك اليوم على ثيابك غبار وفي عينيك همود ، ولم يكن معك سلاح

– حمدا لكل شيء على سلامتك

ولم تنبس كنت منهكاً

وقبلتك شممت رائحتك مرغت انفي ووجهي على غبار شعرك ، تنشقت رائحة العرق على سترتك اي فرح يغمرني وانا أرى جنديَّ الباسل يعود !

وزغردت العجوز

فرح غامر كهطول المطر كأشعة الشمس الشتائية ، ازهر في ضلوع البيت اليتيم اشعلت الجدة مجمرة البخور فانعقد الدخان وفاحت الروائح ، حملتها الريح للجيران احتفالاً بالفارس الذي نجا

كنت مرهقا من المسير ، اذكر ذلك ويداك مخدوشتين وملح العرق قد تخثر على خطوط جبهتك ، ونضح من خلال الثياب مبيضا تحت ابطيك ، وحذاؤك العسكري بلون الفضار

– والآن هات حدثنا عن الذي جرى

كعقاب جريح رنوت الينا شعّت العينان غضبا ، ونضح الوجه الكظيم مرارة ابتلعت ريقك كأنما سكين تحز الحلق

ومن النافذة بصقت بصاقا جافا ملوثا بالغبار

اه كيف كانت المعارك ؟

هززت راسك ، ورسمت على شفتيك اليابستين بسمة يابسة ، تحاكي ابتسامة ميت معارك هه أية معارك ؟

ـ الحرب

فككت أزرار السترة الزيتية والاصابع ترتعش نزعت الرتبة والاوسمة لففتها ثم قذفت بها خذي منذ الآن اذهبي انت الى الحرب

وضحكت انا اصير جنديا ؟

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ وأنتم ؟

ـ نحن ؟ ها ها قال نحن

وعكفت سبابتك نحو الارض ثم تناولت من جيب بنطالك رزمة من الاوراق الملونة الجديدة ، فردتها بين اصابعك ثم قذفتها نحو الفضاء فراحت تتناثر فوق البلاط محدثة خشيشا خافتا وراحت ضحكاتك الهستيرية تتعالى

ـ خذي مالا وسبّحي للسلطان خذي

لحظتها خشيت أن تكون النوبة قد حضرت كنت قد بدأت تصفر ثم تتغضن خطوط جبهتك ، ازرق وجهك وتقلّصت عضلاتك وعيناك شعّتا المـا واحمرار ، فقلت في نفسي بدأ يدخل في تيه انفصامه

سألتك ما هذا ياحبيبي ؟

فتمتمت منسلا من حضور النوبة رواتب اضافية

للشجعان   وبصوت كالرعد قلت   هذه هي الحرب يا اماه

خيم صمت ووجل وتوقع   قطعته انا بعد حين محاولة اخراجك من تيهك   لكن يديك مخدوشتان ؟

ونهنهت منكسرا   من الزحف والاختباء

تذكرت النقص والخلل الذي غرسناه في دمك ، فأدركني شعور مبهم بخسارة الهيولي   مزحنا لأقصيك عن حالتك ، ورويت لك نكات قديمة عن الشجاعة والنصـر ، وحكايا مريحـة للاعصاب وتوسلت العجوز لباريها ان يمحو الظلم والغدر من العالـم ، وان تغمر السكينة والطمأنينة القوم المسالمين الاتقياء ، فتخدرت

فوق سريرك المصان ، المغسول بالغار والصابون المطيب بالعطر ، انشلحت بحذاء القتال

وقبل ان تغفو همهمت تنهيدة يأس   انتهت الحرب اذن

لم يعد والدك من هجرته   ينتقل الآن من بار الى بار ، مـن مرقص الى مرقص آخر   يهيم ثملا محزونا في شوارع المدن العربية وفي متاهات المدن الغربية ، بحثا عن امراة وحرية وعن نفسه الضائعة. ينام على الارصفة وفي الخانات المهجورة ، يضرب في مجاهل الارض فيزداد ضياعا وحزنا ولا يلقى رضاه المفقود

وتنام الآن في حفرة دامسة ، ممتزجا بالارض بعد أن افل نجم حياتك وهوى ، هاجعا تحت السكينة واليأس في ظلام سحيق

منذ اعوام ونحن نتلهى بعـد الايام التي تمضي   أيام قاسيـة كامتداد المديـة في عضلات القلب ، ولا مـن يسمع أنين الارض ، ونواح الامهات المثكولات في الليالي العميقة الحزن

«طائرات يا أمي   أصوات ودوي   هي القيامة ياأمي   نيران مـدّ الأفق   قيامتنا يا أمـاه   دعيـه يعود   اريـد أن يعـود

الطائرات تحلق فوق الخندق فوق البيت فاين ابي دعوني أصدّ
الطائرات المغيرة. جسدي أماه. جسدي يسقط. الارض تحترق.
البيت يحترق حياتي تحترق مازال حيا أماه أنت صبية
أيها الرجل الشرير لماذا هجرتنا. صوب الخندق هاهم يقتربون
دعوني اطلق حرروني بندقيتي فارغة صارت عصا لن
تكوني سبية الحريق... الحريق. لا أمل. عودوا أيها الرجال
ما عاد لكم آخ آخ الناس كل شيء الدم
التاريخ الوراثة العالم كريه العالم يختنق »

واذ تفيق من هذيانك ، تراني جاثمة قرب السرير فتسألني :

أين أنا ؟

أهز سريرك بدعة أنت في البيت حلم يا حبيبي حلم نم
ياحبيبي نم ولتنام أدندن أغنية قديمة تغنّى للصغار في المهد ،
وتسبح عيناك في السقف بينما صدى الاغنية يضيع في متاهة
الليل الصامت

— هل مازال بيتنا لنا ؟ تسألني بمرارة فراقية

اقول مازال

— اين ابي ؟

وبنصف اغماضة ارى طيف ابيك ، القاه كأغنيتي الضائعة
مهاجرا حزينا يشمل ويبكي ، لابيت يؤويه ولا اهل موغلا في
قفار الارض ، مطرودا تحت سماوات غريبة ، ناسيا تاريخه وابنه
الخارج من ضلعه ، والمراة المكسورة الخاطر ، تواسي جراحها في
الصمت وتسهر عليك

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق »

قال الشيوخ .

وقال فقراء العامةوهم يسيرون خلف النعش المجلل مباركة النفس الملوثة تموت بشجاعة لتمهّد للنفس النقية كم تمنيت ان افديك وانت تشتعل في الغرفة ، يسبيك الحريق كما سَبينا في ذلك اليوم الاسود

اذكر كيف كان المطر يسح على النوافذ ، وصوت الرياح يدوي في سمعي، صاما صوت الحريق المتدفق فوق الجسد الذي ارضعته وربيته بالحليب والغناء حتى نما وترعرع ليشيل احزان الايام القاسية

لكنك كنت تفنى وتترمد كما البرق ، يطهر الحريق نفسك في اللحظة التي خيل الي فيها انك تغتسل من غبار الحرب

تماما كما قال الطبيب دقائق خمس ونوبة الانفصام ترمح في سهوب نفسك، والدم الملوث يغشي البصر الانكسار وموسيقى الزنوج والغضب في آلاباما والمسيسيبي. موسيقى الذل والاضطهاد. واصوات البوذيين الذين يحترقون في الساحات العامة ، تتحشرج تحت ضربات الألم الملغي الحدود كنت تعزف انشودة البعث في الموت وكان المطر هو التقمص الجديد

« ــ لماذا احترقت ؟ »

اي ذهن يستطيع أن يتصور الانسان في عافيته المتاججة في سموقه النامي كشجر الحور في ضجة جسده الدافق كينابيع الجبال الوحشية ثم يتصوره كومة من عظم معجونة باللحم والدم المتفحمين ، ملفوفا داخل خرقة بالية كخيام المشردين ، مرميا فوق أرض قفراء ، ثم لاينفجر ؟

هل تراك تركتني للاغتصاب الاقسى ؟ »

اراقب دبيب خطوات الزمن في وحدتي المنسية اعرف لماذا احترقت في الصيف الذي مضى اقرا وصايا أيوب في سفر

الاسفار القديمة .اتذكر زخَّات المطر ليل احتراقك ، تلفحني الريح القادمة من الشرق المتوهج ، وأتمتم كلماتك بفرح فجائعي :

لا تحزني تزوجي غير ابي ولدي أطفالا أسوياء لايهجرهم آباؤهم ، أطفالا لايحبون موسيقى الزنوج والعزلة ، يطلقون النار بلا أوامر ولا يتراجعون

الـومض

اتجه الآن نحو مكان ما في راسي نشوة صغيرة عابرة تملكتني غب ارتمائي على أرصفة هذه المدينة نشوة غائمة تشبه فرحا وشيك الطيران والمدينة رائعة سماء ربيعية مزدهرة بالغيم الابيض والغيم الرمادي ، وخلاله يتسلسل قمر في فضاء عذب.

على الارض يسير الناس بهدوء ، يبدون محايدين ومجانيين العداء القديم لقامات الحجر القائمة على أكتاف الشوارع خامد الآن عرفت ذلك من الدندنات العفوية الخارجة من بين شفتي

في الفضاء بشائر مطر ، توحي بسلام متوقع ، واخضرار يتوج هامات الشجر يتلألأ مصقولا وأكثر اخضرارا مما هو

لا للا لا للا

١

ترنيمة تخرج   تسرح عبر هذا العالم المتواشج   عالمي

هل قلت انني اقصد مكانا ما ؟ ربما   وربما لا اقصد ايما مكان محدد   ما اشعره ان المكان يتجه نحوي ، وانا اسرع نحو غبطة متوقعة تحمل رنينا مزمنا ، في نفسي التي ازمنت تعاستها   ان ذلك الاتجاه يبدو لي رائعا ، مفطى ، اخاف كشفه

لست ادري ومن زمن بعيد ، لماذا اخاف ان تجلى الاحداث ذلك ما يسبب لي نوعا من الهلع الخاص الموصول بتجارب الاحباط التي مرت

كان ابي يقول لي وانا طفل   لم ار في حياتي يوما ابيض وبحدسي الطفولي القديم وذاكرتي التي تختزن رائحة العطب الكوني في الانسان ، ادركت فيما بعد ان عمر الفرح ليس طويلا .

اذن لتظل الاشياء كامنة من بداياتها وراء حدود العقل اليقظ فربما اضيف للحظة الوجد المشتعلة في نفسي الآن بصيص اكثر من الزمن المفرح   تررم   للا   ترللي

اثب في الهواء قاطفا غصنا اخضر واسير خببا   اسير على ارصفة مدينة وقور ، الحياة فيها مقننة والسلوك بمقدار رصين على الشرفة المقابلة فتاة طويلة القامة ، تلبس كنزة بيضاء ثدياها نافران ، ووجهها تحت الضوء بلون الياسمين   فتاة عذبة   قلت وانا اعبر الرصيف   فتلت الغصن الأخضر بين اناملي ، ثم مرغته على خدي ، فأحسست رطوبته البحرية   تمنيت خطفا لو اتمرجح فوق مروج الاخضرار الساحلية القديمة التي غادرتها منذ ابد طفولي لن يعود

لا   ابتعدي رجاء ياتذكارات محزنة وقاسية   الفرح مقبل الآن وانا فارس اللحظة

ورفعت النغمات لتطفي ويهمي النسيان ، اشرعت يدي في هبة ريح مرحبتني وانا اعطف الشــارع   مسحت عمود كهربـاء بأصابعي المفتوحة ، ثم مرغتها على جسد غيضة ياسمين غافية فوق سياج دار انيقة   دخل الاخضرار مرة أخرى ، متسربا من رؤوس انامليواستوطنتالقلب افراح قديمةراحت تفيق في روابيالنفس: بحار خضر ، وجزر بعيدة منفية طحالبها خضراء ونوارسها تصيح بصوت اخضر   أطفال يلبسون ثيابا خضراء ، يمشون وراء نعش مجلل بكفن اخضر   في ذلك النعش توســد اب لم تكن ايامــه خضراء

لا   لي   للا

هل تستطيع ان تكون محايدا ؟ أنا أود ان اكون محايدا الآن. انصبُ في لمعة الفرح الصغيرة المومضة ، وأسلمها تاج عمري. انني أسير محايدا ، في غبطة من الزمن الصغير المدهش   اعوم فوق الارصفة ، فوق شر المدينة   ادنــدن ، أثب ، أصافح الاوراق ، وحديد الاعمدة ، واراقب الفتيات لأول مرة بعبور لااثم فيه .وفي هذه اللحظة المبرقة ، اشعر بمجد الحرية يخترم مسام نفسي

كل اللحظات لكم ، وهذه الهنيهة من الاسراء لي . انني ادعهـا تتخلل كياني رامياً بينها وبين العــالم سدا من النسيان واللامبالاة المشروعة

سبحان من اسرى بنفسه من البؤس الى الحبور على خيط من الغفلــة والسدر

الزمن مخدر الآن ، يستلقي في الخارج،غافيا في مكان لااعرفه ربما كان في العطفة التالية وربما في المكان الذي أرنو اليه لكنه طلع مني الآن كبرق حل في الأشياء أيايا   تم   تتم   تم

غرفة نائسة الضوء ، ستارتها حمراء ، وارضهــا مفروشة

بجلد طري ابيض ، وسرير واسع ، فرشت عليه بطانية مخططة بالابيض والاحمر ، وامرأة ، وحلم ومنذ قديم الزمان يحدث ذلك لست ذاكراً متى ، ولا كيف ولماذا الاشياء تمشي خطوة ثم تتوقف

نبحر في سفن منتقاة ، وفي عرض البحار ، تتصدع السفن ، تتسرب المياه ، ويشيل الهلع الغرفة تقترب وصوت المدفأة يفرغر موسيقى كئيبة ، تصدح وداعا لرجل مسافر والمرأة متكئة تمضغ دخانا وتتأمل الخيوط الدقيقة الرمادية التي تتلاشى هو انعمر نمضي هنا في غرفة سرية صامتة والكلمات لايُجهر بها لرجل غريب نحبه بصمت

عالمان أنا وهي بالاسرار ، والعطب الذي لايبوح ، وبيننا وبين الزمن معاهدة وتوقيت لكن البوح يجيء متأخرا بعد ذوبان الصبوة. بعد ان تصبح الكلمات كخلايا نحل هجرت

بثوبها الحريري الشفاف تستلقي ، مرفقها الابيض على الوسادة البيضاء ، وراحة كفها تسند وجهها في عذوبة المطر الصيفي

ليست حزينة ولا فرحة تعوم فوق سطوح العالم بقلبها الثلجي، ووحيدة تحلم بالفرح القتيل

خزانة الثياب مفتوحة ، وحقائب الاشياء الصغيرة مبعثرة تلمع تحت الضوء الخافت ، وكتب منتظمة صفحاتها لما تقطع

جسد مرمري معجون بالحليب والدم ، داخل ثوب كشاف رؤى ودخان ، ورجل مسافر ، ثم غريب ، وامرأة عذراء تنام طي

بكارتها النفسية

ـ أنت وحدك يابنية ؟

ـ انا امرأة
ـ يقول الناس ذلك
ـ وانت ؟
ـ لم أجرب بعد
ـ طويلا ستنتظر ، وعندما يبكي الحجر تجرب
ـ ثمة وقت
ـ تمضي العمر بالاحلام
ـ يقول الشرق والخوف ذلك
ـ انا لاأخاف مايخطر لي افعله
ـ طفلة جميلة وكاذبة
ـ جبان .
ـ وأنت قطة سيامية تنوء وتحلم بدفء الفرو
ـ الكلمات العذبة لاتطعم نساء « تضحك
ـ المرأة وطن منهوب
ـ تتقدم خطوة ثم ترتعش (تضحك اعلى)
ـ قبلك جرّبت نساء
ـ كيف رأيتهن ؟
ـ يعطين رجلا آخر
ـ انت اناني تقطن داخل جلدك
ـ اريد امرأة تقبل بعد الشهوة
ـ أحلامك مريضة
ـ أريد امرأة مغـامرة
ـ راوح مكـانك

ـ لماذا تخافين الخيانة

ـ ولماذا أخون ؟.

ـ لان رجلا آخر يقطن جلدك

ـ انت تخون ؟

ـ ومن الذي لايخون

ـ ماطعم الخيانة ؟

ـ ثأر عذب مسكر فيه كشف وندم

ـ الرجال قذرون

ـ والنساء أطهر من زليخة والمجدلية

ـ لو ان الانسان لاينمو

ـ لو ندخل بوابة الجحيم

ـ أنت رجل شقي .

ـ وانت امرأة سعيدة

ـ ملعونان نحن

ـ لندخل تحت عتبة اللعنة

ليس عدلا ان تنام في فراش رجل غائب، مع امرأة ماتزال عذريتها النفسية مصانة ، غير ان الذهن يسبق ذلك وبين الطرفين الممدودين بصمت تحت غطاء خوف السنين ، وتخطي اللحظة الشفافة ، يمتد وشج خائن يلمع كالومض ، ويحدث الفعل وتسأل هذا القتال اللعين بين الذهن والفعل متى ينتهي ؟

ـ اترحل معي ايها الرجل الغريب ؟

ـ ارحل .

ـ هلم

ونهجر الناس والأطفال والازواج الجرحى نمضي الى البراري والجزر الوحشية نفعل ونغني ونبكي نحس زلزلة الارض ودوارها تحتنا ، نصعد تلالا غضارية ونرتمي في وديان سحيقة وعرة ، ننحشر معاً في مغاور قديمة عنكبها الزمن ثم نصرح كالوحوش في مجد النشوة المشتعلة وبعدها نموت بلا طقوس ولا حزنٍ فوق أديم الارض

غير ان لمعان الاشياء المصنوعة باتقان هو التحول ، والغرف التي تشبه الصناديق المقفلة تعوض عن مفاور الجن الوحشية المهجورة

هكذا حدث اليقظة على خيط من السقوط المفغل ، وبدا لمعان الأشياء المصنوعة وغرف الصناديق المقفلة أوشحة وهمية للبكارة التي تمزقت في السر وبعيدا عن الرجال المسافرين كانت الخيانة تنام بهدوء خال من الاثم صاح صوت الاب القاسي من انت ؟

اجبتها الرجل الغريب

اجاب ماذا تريد ؟

قلت أريدك أيتها المرأة الصغيرة

شالت عينا الزوج المعلقتان في السقف انا لااعرفك

قلت لها جئتك في الاحلام يوما

انعقد غضب الاب في عينيها انت غريب !

همست لها انا رجل المسرات والصبوة الخائفة

صرخ الرجل المطعون في الظهر الفرح مسافر

قلت : انا الفرح !

نده الصوتان معا غادر غادر الغرباء لايطؤون بيوت الرجال المسافرين

ـ سلام ايتها المرأة الفاضلة

هو هناك في العطفة ، وفي كل عطفة ، في الراس والرحم مقبل ومدبر ، خارج من الارصفة ومن أعمدة الكهرباء ، من السقف ومن الشرفات المعتمة ساتر المطر ، ومغط وجه القمر بضبابة غبارية

بيني وبينها جاثم على بوابة اللحظة ، كفارس قتيل يحمي ظعينته بعد الموت ، قائم كجسد محنط لكن من الذي يتقدم ليهزه ؟

عاد الي الآن وانا ما ازال اسير ، بعد أن انعطفت ملفوفا داخل عباءة صمتي

اسمع صوت الخطوات فقط ورنين الصمت ، وأرى هراوة الحارس الليلي تتأرجح على جنبه ، وهو يهز جسده الراغب في النـــوم

وهاهي الحواجز الحجرية عادت تنتصب أشباحا من القسوة والتحدي فوق جميع الارصفة جميع النوافذ مغلقة والريح ما عادت تهب

سنفير بافير كرنتينا شملون ترللي النساء والفضيلة ، النساء المكسوات جيدا بالاحذية والفساتين الزهرية ، والفساتين تغطي البكارة بصناديق من اسمنت ، وصناديق الاسمنت تمنع الخيانة ، والخيانة تتم بصمت ، والصمت لايبوح ، والشرق حكاية دن الزيت المغلق وفي هذا الدن: شملون جبل حفرة معطف شارع نبيذ ليل نحيب رقص غبار وشهوات تحتضر مجرات ، وشموس تسقط في مستنقعات الشرق، وأنا وحيد أسوح عبر العالم بذهن منحط ، أبحث عن شمس حارة لاتسقط .



بشرش شجرة التين البرية المنتصبــة بين دغــلات الديس ، عقل حميمود بقرته منذ ثلاثة أعوام اعتاد ربط (حمورة) بالشرش نفسه ، وقبلها ربط (عبيدة) (وزيتونة) البقرتين اللتين ماتت احداهما مساء يوم قائظ على الطريق المؤدي للقرية ، ويومهـــا حزن حميمود بصمت وبكى ، غير أن البقرة استلقت فوق غبـــار الطريق ، خارت بآلام حــادة وخرج من فمها رغــاء أبيض كثيف ، ثم ضربت باظلافها وركبهــا الارض ضربات متلاحقــة مهووســة متشنجة وخمدت ويومها أيضا لم يعرف حميمود لماذا مــاتت (عبيدة) البريئة

بعد عام صحب الرجل ولمــدة عامين البقرة الاخرى ولكنهــا

بيعت فيما بعد لجزار من قرية مجاورة ، وبذلك تعلم حميمود الفقدان وهجرة الصحاب

كانت البقرة الجديدة تعني لحميمود ما عنته الاختان الراحلتان ، مجهود اليوم في الرعي والعناية وصداقة السهول وكروم الزيتون سوى أن حمورة كانت أقل تعقلا واكثرتشهيا لمروج الفستق الخضراء المتنامية على شريط الساحل

شدّ حميمود العقلة ومتّنها خوفا من عصا علي ناعوس حارس السهول والغاضب بلا سبب مذ تولى عرش الحماية والسطوة على البراري الفساح

ومن رقبته حل حميمود جعبة طعامه القماشية ، جعبة داكنة ملطخة بالزيت والغبار ثم نزع زوادته وفرشها في الظل فوق العشب وقرفص كان الزاد مؤلفا من رغيفين من خليط الذرة والقمح ، وحبات من الزيتون الاخضر مع بصلة يابسة ، وكرتين من البطاطا المسلوقة

بنهم أكل حميمود غذاءه ، ثم سجد على حافة الساقية المجاورة وغب من مائها الراكد حتى ارتوى مسح بكم معطفه الاسود المهلهل فمه وذقنه النامية ، وعاد فعلق الجعبة بارومة غصن مكسور ناتيء من شجرة التين

على بعد خطوات من التينة الناشبة بين العليق المهجور ، المليء بالغيلان والآفات ، نهضت المغارة التي يستلقي الراعي في فيئها الرطب .مغارة قديمة منسية من عصور لاتعرف بدايتها ، بعضهم قال أنها وجدت منذ وجد الانسان ، وآخرون قالوا انها من زمن الاسلام الاول ، وغالى البعض فقال أنها موطيء قدم البراق الشريف يوم بدأ الاسراء ، ونسجت حولها الاساطير المخيفة ، غير ان الاحفاد عرفوا فيما بعد أن لصوصا ومهربين سكنوها ، آوتهم من المطاردة حينا من الدهر ، وأنها

لاتعدو ان تكون كهفا نحت في الصخر تشكل بفعل عوامل الطبيعة، ومع الزمن . وتعاقب الاجيال سقطت تلك القداسة الخائفة التي حومت حولها ، فصار حميمود يفيء اليها في ظهيرات الايام الكاوية

على بوابتها استلقى كعادته فوق التراب الرطب الممهد ولصق الجدار رمى براسه فوق حجر مسطح ، فاحس غمرة من الامان والطمانينة تسيل في جسده المعنى

كانت المغارة خباء من الصمت ينسدل فوق الجسد والنفس، وهنا كانت الاحلام والنساء المحرمات حلالا والوحدة ايضا

هومت عينا الرجل في السقف الكامد ، وتابعت عنكبوتا ابيض البطن اغبر القوادم يحبك نسيجا صمغيا ينحدر فوقه نحو البوابة ولا يصل ، ثم دار المحجر في الظلام العميق لهذا الكهف التابوتي فتسامق الظلام ثم انسد ، ونام حميمود

الى الشرق من مغارة (الشرشار) تقوم ضيعة حميمود تلة من البيوت والشجر والناس لم يكن يأوي اليها الا في الامسيات بعد ان يمضي يومه عبر السهول المجاورة للبحر او في الوديان وفي تلك الضيعة لم يكن ذلك الراعي اليتيم اكثر من أبله ، يعبر به البشر فلا يحسونه ، حتى التحية لم تكن تلقى عليه وكأنما هناك اتفاق سري ابرم بين الجميع على عزل هذا المخلوق الذي لايعرف كيف يرد السلام على الناس

وذات يوم افتى شيوخ الضيعة محرمة عليه الصلاة فحرموه منها

وهكذا عاش واستمر بلا دين ، ولا قيمة ، كحجر مرمي قرب جدران أزقتهم الزنخة

ومع تعاقب الايام نسي حميمود الناس كان يراهم فقط

وهم يعبرون ، كما يرى الاشياء القائمة فوق سطح الارض
ثم مع الزمن اعتاد ان يكون وحيدا كقط بري

تميل الشمس عن سمتها فترمي أشعتها التعبة فوق السهول ، وترقص فضية براقة فوق مرايا البحر ، ثم يبدأ هواء السهول فاترا حنونا ، وينار باب المغارة كاشفا عن جثة ملفوفة بمعطف مرقع مثقوب ، ووجه متطاول حفره التعبوحرثتهسني الفقد وكراهية البشر. يحسر نور الشمس ظلال الجسد بنصوع يزيد بروزه سواد المغارة الداخلي ، وأسرار آلاف السنين المختزنة في ممراتها الفارقة في العتمة والصمت ، لكن سر المغارة ونفس حميمود تضيعان في زحمة الايام. ويتململ الجسد تحت وطأة الضوء ، وترف عينا ميت قام على مهل عينان حمراوان ضامرتا الاهداب يتثاءب بصوت وحشي مبهم ثم يتمطى وبقفزة هررية مذعورة يصبح خارج باب المغارة في يده عصا شدخت من شجرة زعرور يرنو نحو الغرب خائفا من مغيب الشمس ، ثم يهز رأسه ويضحك ضحكته البلهاء المفلوجة وبطرف العصا يلكز حمورة الجاثية وهي تجتر ما مضغته قبيل الظهيره

تلتفت البقرة بعينيها الوحشيتين المضيئتين نحو راعيها تتثاقل ناهضة وبعد ان تنتصب فوق قوائمها ترسل خوارا حزينا يمزق الصمت والمدى ويردد صداه جوف المغارة الاخرس

يفك حميمود الرسن المعقود بالشرش ، وهو يتأمل هذه الصديقة شغفا مغبطا وتنتصب قامته التي انحنت فتنغرس في عين حمورته ومن مكان مستور تصاعد لهفة منكسرة تمتد بين عينيه وعيني البقرة تتسع عيناه اكثر ، وقد تاهتا في ما وراء بؤبؤ عيينها ، وتتمطى اللهفة غورا في العين الطويلة السوداء تصبح العين بحرا ، مدنا ، وقرى ، يخطر فيها امواج

من النساء الشهيات العصيات على الاخذ   لكل امراة اكثر من رجل   ولكل رجل اكثر من امراة. البشر الذين خرقوا المواثيق وتخطوا قسوة الشرائع ، انحرفوا نحو رغباتهم ، وتاهوا عن الله يسمرون ويضحكون ويتنهدون   هاهم في حلقات العشيات في ساحة القرية وامام الحوانيت ، يقفون ، او يجلسون على حجارة بيضاء ، شبابا وثنيين مستهترين قرب نساء ارامل هجرهن الرجال الى ماوراء البحار والى المقابر، فبقين وحيدات تشب فيهن الرغائب وروائح الذكور الذين رحلوا   فتيات عمرت صدورهن ، نضجن ، وفي النفس قام الوجد ، يضحكن عاليا فيرن الليل ، ويخفق الصدر المتلع مع الضحكات ، لكأن زمنا سحيقا نائما كانت فيه تلك الضحكات غافية تحت رماد الاستكانة هاهي الآن تستيقظ   يسمع وهو يلطي في زاوية بيت مظلمة عازبا يقول لأرملة   جسدك مزار أطوف حوله

تقهقه   كم انت غبي

– لو تدرين كم ركعت وابتهلت من أجله

– ها   ها   ستموت ألف مرة قبل ان تنال منه شعرة.

ويصرخ رجل متزوج يحتسي خمرته   في صحة كل ارامل وفتيات الضيعة الشبقات   يمتعض عازب محقون   سم زعاف اشرب وازحف الى خيمة عجوزك !

ويسخر خاطب خبأ خاتم خطوبته   ديننا أفسح دين ، لو قيست به بقية الاديان لبدت متزمتة   أعطانا أربع زوجات

– ناهيك عن التسري

يردف عازب آخر مندلق الكرش: بروحي المصطفى التقدمي. ويشيل صوت قادم يضع نظارة طبية بيضاء   ياأبناء سدوم الملعونة !

ومايزال حميمود محدقا في عين البقرة العين الوحشية الوحيدة حيث يرقد الناس والنسيان والرسالات القديمة ، ثم هذا الابله المتقن للرعي والنوم في مفاور الظلام والصمت ،واحلام الجنس المحرمة

هذه البقرة حميمة الى نفسه ، يحس ذلك فيعانقها ، يحاول ان يتحدث اليها فيشعر انه عيي وتتشرشر الكلمات من فمه صوت حيواني باهت يخرج ، تبلعه البراري ويمتصه الفضاء الزعفراني

فقط وفي الاعماق المسدودة تختلج دمدمة ، يحسب حميمود انه يفهم ، لكن البقرة والناس حجارة ، حتى الفلوات والمغارة صارت مقبرة للتذكر المقتال

هوذا حميمود الانسان المعمرالراعي يخطر بين البشر،كفئران الحقول العتيقة ، ينتصب على بوابة المغارة بعد ان سافر القتلة وتناسلوا في طول الارض وعرضها ، ملؤوا المساحات حتى ضاقت بهم الارض ناس ناس كالجراد ، كالنمل ، يبحثون عن كل شيء عدا الانبياء ، بشر صادوا الغواية وصادتهم، رغباتهم مطاياهم ، ذلك ماهو الآن ذلك ماهو الآن

ويجمجم فتخرج الكلمات صيئات بدائية فيهز رأسه يائسا، بادئا مسيرة الرعي المسائية رسن حمورة في يده اليمنى وفي اليسرى عصاه ، متقدما البقرة ، ميمما جهة السهول المبسوطة على مدى النظر حيث تنفرش بيادر الفستق الاخضر مروجا تفصلها التخوم والسواقي الكثة الاعشاب

كانت سهول القرية تتمتع بذلك الاخضرار الدائم على مدى الفصول ، ويشتعل اخضرارها الفض اكثر في طلائع ايلول شهر الرياح والرطوبة والاحزان

وبين تلك المروج المشلوحة على حوافي البحر كان حميمود

يسرح ببقرته ، ساهما مدى ساعات في البحر والسهول ، وعبر خيام الفلاحين المتناثرة

الطريق الى قرية حميمود غباري مزروع بالحجارة المغمورة بالغبار هي ايضاً ، وفوق الغبار ثمة آثار اقدام للناس والحيوانات. على منكبي الطريق ينهض الزيتون المعمر ، اسود الجذع ، مشقق القشرة ، محدبا بنتوءات سنوية زيتونة قرب زيتونة قرب اخرى ، قائمة كهيكل بشري محروق ،صامت ووحيد ،كشواهد قبور من الدهر الاول ، وفوق الطريق ثمة سماء كدرة ، وفضاء مغبر تهزه الريح

ويخب حميمود بخفه الدهري الواسع المشروخ في حزن المساء، محنيا فوق غبار الدرب والبقرة تتهاون خلفه على الدرب يترك هو الآخر علامات ، ويتحدب الدرب ويلتوي ثم يصّاعد نحو القمة ورجل التاريخ يتلفع معطفه المثقوب وكوفيته الرمادية المحسورة عن جبهته تتعرق قطرات تسيل من الناصية نحو شعرات الذقن ثم تتمهل ، ثم تنحدر بسرعة خاطفة على وجه الغبار

ايقاع للقدم ثم صمت رفرفات للعين المرمدة ابداً ثم صمت قامة مقوسة بالقهر والنسيان والصبر ، ثم لاشيء البتة

الطريق يمتد سابحا بين الزيتون والظلمة وشجر الصبار ، والبقرة قد شبعت والشمس فوق خط البحر الافقي برتقالة تزداد احمرارا ، وفي الخلف والمقدمة الفلاحون المتعبون ، ثم حميمود والزمن الهارب

الآن قبل الآن وبعده ، من يذكر ؟ ماقيمة التاريخ الذي مضى ولم يعط الكفاية للناس ولم يخرق سديم الملايين الغفل اكتفى بقيادتها زمنا ثم غار

لماذا لا يستطيع الانسان ان يتذكر الولادة ثم الموت ثم الحشر ثم البعث ؟

واحد اثنان ثلاثة اربعة :. والخف العريض المشرط يرسم علامة. وفيما مضى كان هو الآخر علامة جيل تلاه جيل سل اجيالا والصمت لا يتكلم ولا يلج اشارة المطلق ، لا يقول شيئا.

وكان الرجل المنسي سيد قومه في غابرات الحقب ، طلع من ضمير الصحراء عشية ليل وثني كان يتيما كما هو الآن وكان يحب الرعي رعى البهم ورعى البشر ، وكان يعشق الوحدة والنساء ، ولم يكن غبيا امتص زمنه وارتقى متن رغباته ، كان يحيا ويبرر ويعرف جيدا ماتريده تلك النفس المتطلعة ، النفس الملتهبة ، وعلى مر الزمن صار حكاية ثم مجدا وغاب

في ضمير الازمنة اسرى البشر وعرجوا ، ضلوا وادركوا ، قامت حروب واحرقت مدن طاف من طاف بالاضرحة، ورش البخور فوق القتلى ، وها هو جيل يحب النساء والوحدة والحزن ويكره السجود يولد »

كضبابة معتمة يجيء هذا الادراك القديم ، يجتاح غيابة حميمود، تصدمه بعدها رعشة خوف من شخص كان غائبا هوذا يحضر الآن. تنسد المنافذ ويقع مغشيا عليه ، وتختفي الضبابة

عندما يسقط ويعبر به الاخرون ، كانوا يهزؤون منه ، يركلونه باقدامهم ويصفعونه كيما يفيق من نوبته

وفي ضحى يوم قائظ داهم حميمود التذكر ، جاءه كسحابة هادئة من غيب قصي ، لفت أمام عينيه وراحت تدور ارتعش البدن العتيق واجفا وثقلت الاجفان ثم دارت العينان الرأس طار ثم انفتح عبر الفضاء السحابي ، وداخل النفس

عبر الماضي فتحت الممرات الدامسة

علامات تمر خفقا ، وتلال الرمل والمضارب تعبر كاشارات هلامية وامضة هوادج النساء تبدو ويخرج منها فرسان يضربون اعناق بعضهم البعض والرجال يضرمون النار في المضارب والاطفال ، القتلى ونواح الصلوات يغطي الصحارى ، ومواكب الحريم تمشي في الفضاء عارية ومجللة ثم الفضاء الاصم ولا شيء غير الظلام

وتفلت حمورة نحو المروج الطرية تنحني قامتها دافنة رأسها عبر الحشائش ثم تروح تلتهم بنهم اوراق الفستق المحرمة ، بينما يهوي فارس المراعي نحو الارض على التخم يرتمي وتتمدد أطرافه براحة ، وحمورة توغل في غياض الخضرة ، والسماء مضيئة وقاسية ، ويبدأ البدن يرتعش أكثر ثم يزفر الفم زفرات صفيرة متقطعة ، وتتحرك القدمان ثم تتشنجا ، ويتعالى الزفير محدثا صوت حشرجة لحيوان غريب ، الحجاب يرتفع وينخفض وتخرج رغوة تبدأ تغرغر على حوافي الفم ويتواصل الانين الوحشي

من بعيد جاء صوت الحارس متوعدا خرق الفراغ والسهول جفلت حمورة فرفعت راسها واشرأبت اذناها. توقفت عن قضم الحشيش وحول عينيها المفتوحتين بتوجس راحت ذبابة زرقاء تطن

– ايها الكلب وقعت قال الناطور القاسي

واقترب ملوحا بعصاه السنديانية حتى أشرف على الجثة

– جاءتك النوبة هاه هذه حجتك لتشبع حمورة .

خذ اذن   وانهال بعصاه فوق بطنه وفخذه وصدره

أنّ الحيوان متأوها

– من الذي ينجيك من يدي يا لعين   يا داشرباراضي النــاس

تحت الضربات كان البدن المخدر يتــلوى ويتمرغ ، والصوت الوحشي يزداد حدة ، والحارس يضرب بتلقائية لئيمة   بحمى مسعورة تهوي عصــا الحارس فــوق الراس المعفر بالوحــل والحشائش   ضربتان وتتجمد الثالثــة في الفراغ   ينفغر فــم علي ناعوس وهو يرى انفصــاد الــدم من الجمجمــة ويتمتم بخوف   مات .مات حميمود

تلك كانت بداية رحلة الراحة للذي فقد ذاكرته وبقــي له الحس   تعطلت النفس يا حميمود وبقيت شاهد الصمت الاعظــم لكــن نبــوءة الحــارس تحققت عــلى نحو آخــر مــن الموت

بــدون الراعي راح النــاس في القريــة يؤدون طقــوسهم لا أحد يذكر ، أو يهتم ، والنفس المقفلة نسيت حالتهاالسابقة والشر رامح في البشر حتى يوم الغفلة

الشيــوخ يؤدون صلواتهــم الخمس الاعتيــادية فــرادى وجماعــات عــلى طريقتهم الخاصــة فــي البراري والبيــوت ، يذكرون بالقيــامة والحشر والعقــاب ويرثون الامــلاك ، ومــن امــوال الزكــاة يشترون الاراضي ويعمرون البيــوت ويتزوجون الصبايا النضرات بينما فقر العامــة ماض ، وتحت ستر الاستار يسكن النسيان والنبوة ، التسبيح لا ينقطع وحميمود ابله الزمن الحاضر يهز راسه ويضحك ولا يقيم الصلاة   على الارض نفسها مع الفقر والصلاة ، تشبّ أجيال الفتية ، بين الحارات والحوانيت

في الليل الاسود هي الاخرى ايضـا تصلي صلواتهـا الخاصـة للجنس والحزن والرغبـات المسدودة ، لامبالية بأفواه الشيـوخ الفبية وهي ترتل اخدار السنين

الطريق يمتد وما زال الايقاع هو هو

الجسد المنحني تحت المعطف الرث ، الذقن الطويلة الشعر ، الاهتزاز وضحكة البله ترين على السحنـة الحشرية ويسمـع حميمود أغنية صبية عاشقة تعبر الدرب فرحة تقول

في الساحة لي عشيق
وموعدنـا الليـل
الحزن وشاح الذي صار وحيدا
والقلب ينفطر ولعا
الى مفارة الشرشار
يخطفني حبيبي ،
الا ما اقوى ذراعيه وهو يضمني
الى صـدره

والدرب غباري وطويل ، عليه يمر الفلاحون المتعبون المحبون للصلاة ، والخائفون من عقاب الله ، وخلفهم هذا الأبـله المأفون الفاقد لذاكرته النبوية

مـن تراه يذكر مـن تراه يصـدق التاريخ لو ينطق مـرة واحدة بصدق في وجهالبشر القاصرين عن التذكر ، والذينلايؤمنون بالمعجزات

ـ لماذا العقاب بل لماذا الشر ؟

ما الذي يحدث لو ان حميمود خرق الفياب وعادت الذاكرة .

لو انه وقف يوما على هذه التلة القائمة في مشارف القرية معلنا المعجزة

أيها الناس أنا هو تاريخكم السحيق ، وانني لعائد اليكم مبشرا ونذيرا ! »

وتخفق ريح واهنة أصيلية ، فيتحرك الشجر المبارك حركات حزينة ، ثم تخور البقرة

يقول شيخ مسن لزوجته الصبية انني خائف يا امرأة

تقول الزوجة ولم الخوف ؟

يرد الشيخ حلم غريب مفزع طاردني طوال الليل

رايت رجلا طويلا يلبس جبة خضراء على رأسه عمامة خضراء فوق فرس خضراء وفي يده رمح أخضر يعبر حقولنا الخضر فيحرقها بطرف رمحه

ـ ثم ؟

ـ ثم رايته يهذب فرسه فوق النار باتجاه الشرق ضرب الزيتون فأحرقه أيضا تواصلت نيران السهول بنيران السفوح ، وماجت النار فكسف الدخان البحر والسماء ، وصار الفضاء نارا.

ـ وقانا الله ثم ؟

ـ ثم اخترق النار على ظهر الفرس العاري وبيده الرمح الاخضر والفرس تجمز كالريح حتى وصل القرية وسمعت صوته مجلجلا كرعد السماء ياقوم جاءكم الحصاد انا منجل الله وهذا رمحي علامة

وتأوهت الزوجة وكأنها تموت قنا يارب التهلكة ايه ؟

ـ احتصد من النفوس ما احتصد دمر المنازل ، وهدم المعابد ، وراح رمحه يخترق الصدور والجدران ويضرم اللهيب احرق

القرية بناسها وبيوتها وشجرها وسمعت صوته السماوي يقول

قاتلوا الانبياء صلواتهم كاذبة وأبناؤهم غير شرعيين يرثون الارض بغير حق ثم رأيته يطير فوق النار على ظهر الفرس وبيده الرمح وغاب

– ولم يبق في القرية صافر نار ؟

– نجا ذلك الراعي الابله الذي لادين له ولا امرأة

– ويحي أيحرق الشيوخ والقديسون ويبقى الاشرار ؟ يارب سترك !

تلفع الشيخ بعباءته وخرج نادته المرأة الى اين ؟

– لنقيم الفرض تكفيرا ونكشف على الحقول والناس

– لكنه كابوس

– من يدري

وفي زاوية مجاورة يتكور فتى أسمر ملهوف في انتظار خروج الشيخ

وفوق القرية والطريق والغبار يرسو المساء ، فيبدو الفضاء الارمد واولى النجيمات تتلألأ في الغرب يحس حميمود بالضنى ، وبحفنات التراب والحصى الصغيرة تدخل حذاءه وتقرص اصابع قدميه بصعوبة يرى فيجلس على صخرة يمين الدرب ويحدق في الظلام الصامت

صمت يمتطي صمتا يدخل في صمت عبر ظلام لا بداية له ولا نهاية ، والابله هنا مرتم فوق حجر منسي ، هذا المنسل عبر الزمن من سلالات الانبياء القدامى الذين ظللتهم الغمامة. قاد حروبا وشرع أنظمة وقوانين وقيما كان فحلا يملك أكثر من امرأة شهية وصغيرة، وكانت له أحاديث تناقلتها الاجيال. يتيم الزمن المنبوذ هذا لماذا هو الآن وحيد بلا رغبات يعبر به البشر ولا تحية في الاصباحات

والعشايا والعالم مستمر والصمت لاينخرق، وضربات علي ناعوس اللئيمة ما تزال تدوي في جدران الجمجمة والشيوخ لايعترفون بالتقمص الغيبي وعودة الروح ، خوفا من الصحوة وعقاب الخمر والزكاة وامتلاك الاراضي والزنى المشروع

ويقول الفتى لزوجة الشيخ كم أنت لذيذة

تتأوه انا لك خذني

ويأخذهــــا

ـ لكنك صبية فلماذا تزوجته ؟

ـ آه أيضا !!

ـ يا لك من امرأة مسعورة

ـ هيا يا مهري هيــا

ـ وزوجــك ؟

ـ حافل أهابه بالسجود والترتيل لله والمال

ـ لــو رآنــا ؟

ـ يكذب عينيــه

تلك هي السلالة التي وصلت واستراحت

في بقعة ما من الظلام ناحت البقرة بخوار حزين فزع ، فتنبــه حميمود من غفلته وصمته قام وقادها

كان الآن على مشارف القرية بعد لحظات سوف يلج الازقــة المعتمة ، يربط البقرة بوتدها الملوث بالروث تعطيــه المرأة التي يرعى لها بعض الخبز والزيتون والبصل فيأكل عشاءه على حجر في عرصة الدار الفسيحة ، يشرب ويتمتم كلمات لا معنى لها ، ثــم تفــرش له حصيرا وفراشا من اغلفة العرانيس ومخــدة من قش البرغل . سوف يستلقي تحت الدالية يرى من خلل فتحاتها النجوم

والسماء والصمت   وسيحلم بامرأة شهية وصغيرة ، واخرى كبيرة تنام معه في فراشه تلامسه وتسري فيه الدفء ورائحة توق الجنس الانساني   لكن كل شيء يجري عبر مجراه المنحرف ، وعبر خرق الثياب وخرق الايام المتماثلة

وتظل حمورة والسهول ، اليقظة الدائمة في صباحات جميع الايام ، ويظل هو الشيء الذي كان يمكن الا يكون لا في الزمن السالف ولا في الزمن الحاضر   وفي الزمن القادم لا أحد ينتظره

حالة طلق

عبر البراري كان النهر يجري   وكانت هناك امرأة تتوجع
وقال الصياد   ياله من يوم قاتم ، حافل بالصيد ، لابد

وفي غرفة نائسة الضوء ، دافئة ، راحت امرأة تتعرى

وقال القس في كنيسة مجاورة   طقوس الحياة الآب والابن
والروح القدس   الهبوط ، ثم الصعود ، فالسكتة

بقدرة ذاتية متولدةمنه ، كان النهريجري بين القصبوالشيح.
وبين القصب والشيح راح البط يرعى   وكان هناك طمي

فرح كولادة طفل ، هب على روح الصياد وهو يتصور أسراب
البط تعبر النهر

— باسم الآب والابن والروح القدس أعمدك .

ورشت عليها الماء المقدس ، بينما كان الطلق قد بدأ

في الغرفة الوردية الناعسة ، بدت المراة تمثالا من المرمر المرصع بالعقيق وعلى الفراش تململ وجع شهوي اخترق ذرات جسد الرجل ، المنتظر هبوط المراة

ـ انما نبلوكم لنرى عند الله أتقاكم

هو ذا اسماعيل يمتطي الدروب ، باتجاه براري الصيد في غبش الفجر ، ومعه كلبه واسماعيل صياد قديم ، من سلالة تحترف القتل مذ نبتت على سطح الارض واسماعيل رجل يؤمن بالله أيضا في ساعات الضيق ، لكنه يؤمن بالصيد أكثر

قبل ان يخرج من بيته ، حلم بصيد وافر ببط يسد منافذ الافق بط أبيض وأخضر وأسود ، يقبل فاردا أجنحته ، مقتربا ببطء حتى يصير على مرمى

الطلقة الاولى في المقدمة ، تتلوها أخرى ، ثم أخرى في الوسط والمؤخرة جنون من الطلقات ويتكوم البط القتيل والجريح قربه فوق الطمي

طقوس

وبغنج مهتوك تنفتل المراة العارية أمام المرآة

هي أيضا في لحظة مواقعة ذاتية ، في لحظة متولدة نارا كطاقة النهر ، والرجل الذي يتوقع هبوطها يضغط بحنق الفراش والوسادة.

ـ المراة اله وافعى في جسد واحد قال الذي يشتعل شوقا وحقدا

ـ ماذا سنسميه ؟

تساءلت النسوة في الغرفة المجاورة

كانت الام التي تتمخض تعض اصابعها والوسادة . تنشج

جنسا مرفوضا والالم يرشق ضلوعها بطعنات كالمدى

ومن كنيسة مجاورة ، راحت التراتيل تدوي كأزيز نحل في جرار مقفلة

ـ اسماعيل

الى ضفة النهر سبق الكلب اشتم رائحة البط فعدا صرخ اسماعيل بالكلب فالتفت نحوه ثم وثب الى الدغل

من كتفه نزع بندقيته وراح يجري في السفح فوق العشب الفض كان يدوس العشب المندى ، وفي انفه رائحة البط والطاقة الذاتية المتولدة من حمى الصيد

هو الآخر يواقع رغباته بطقوس رجل متوحد

الصيد عذب

الطفل عذب

والمرأة التي تعرت الآن اكثر عذوبة

جميع الاشياء الغافية تحت جناح التوقع عذبة ، ما دام الفجر لما يطلع بعد

طقوس عذبة

قبل ان يصل اسماعيل الدغل ، نفر البط سمع صوته وخفق اجنحته ، فخفق قلبه بعذوبة واذ سمع عواء الكلب وصوت خشيش الدغل بعيدا عنه ، شتم الكلب المهتاج ، ودهمه امتعاض وحقد

ـ البط يرحل

ـ ثمة بط آخر لا حصر له قالت رغائب اسماعيل التي تتوالد كتيار النهر

الآن دخل بين اجنحة الدغل

واقتربت المرأة العارية من الفراش

وازداد طلق التي تتمخض جنسا مرفوضا   جنسا كريها كعلق المستنقعات

الرغبة فصمت شفتها السفلى عن العليا ، فبدت مهدلةتحتبس بشهوة لها رائحة ، وراحت كل ذرة من الجسد المخملي تنبض ترتعش بالتوقع

ايقاعات طقسية ، يتخللها برق

الرجل المستلقي على الفراش ، عار هو الآخر   ممدد كأرض تشتهي مطراً والدنيا صيف

عيناه مذ بدأ التعري تجوبان خريطة التمثال   ترتفعان تنحدران. تجتاحان   وفجأة تتسمران في وادي الفعل والطاقة.

وكما رأى اسماعيل أسراب البط تسد الافق   بط ابيض واخضر واسود   بط يأتي من بحار مجهولة فرحة ، حاملا ريحا من فرح ، رأى الرجل المستلقي وهو يسبل جفنيه ، وطنا من فرح يقبل محمولا على غمام من شهوة ، حريريا دافئا

واذ دخل سفوح المرج الحريري العبق ، سحرته الروائح روائح ليس يدري من اين انتشرت. كيف نفذت من الجلد المخملي، من تحت الابط ، من ساحة ما بين الثديين ، ومسيل الفخذين.

هو ينساب سابحا   يتمرغ مغمغما بالروائح وشهوة القتل يقيم طقوسا في هذا الغسق السحري. متوحدا يود ان يطلق هو الآخر .

الحلم الافريقي كيف حضر الآن قطع كل تلك المسافات من اسمرة الى دمشق ولم تعقه ذرات الفراغ جاهدا يحـاول اسماعيل أن يتذكر. حتى التفاصيل الصغيرة للحوادث والجسد الابنوسي ، ينبغي الا تفلت

بيت منفرد بين الادغال. بعيد عن المدينة المراة تقود السيارة وهو بجانبها غريب ومتوقع ، والراديو يرسل موسيقى جنسية عذبة ، والبراري موحشة تفيض توقعا. البط يهجع تحت ذوائب العشب في الظلال المستورة والرجـل ماخـوذ في الخلف اسمرة. مدينة افريقية الجنس يشم فيها كالريح ، يؤكل كالأرغفة لكن هذه المراة شيء خاص مختلف ليست خلاسية ولا بيضاء ، تشم روائح الغرباء، تميزهم، ثم تنفرد بهم في منزلها الوحشي ، المعزول

موسيقى وسكي ابتسامة ساحرة ، وعينـان مومضتان ببريق يرتعش حـافيـة تخطر فـوق أرض البيت المرصوفة بالخشب والدنيا غسق هي غسق ، ورائحة الصندل تعبق في الحجرة ، تكاد ترشح من الجدران والارض والسـرير ثـم التوقـع

طقوس

ـ سجل لي اغنية خذها معك الى دمشق

وادار المسجلة وسقته من كأسها من الحافة التي تحتسي منها أحس طعم الريق فارتفع مد الخفقان الداخلي ، وقسمت موزة ناولته النصف، وتناولت النصف الآخر بهدوء مضغ وهو يتملى البريق المشع من غسق عينيها كانت شفتاها تلمعـان كموجة في فجر مشمس ، ولم تكن تضع طلاء وإذ لفت ساقا فوق أخرى ، انحسر الثوب ، فانتشر بعري الفخذين وهج من جسد صلب ، حار ، ناعم ومتوحش .

وراحت تغني أغنية افريقية راشحة بالجنس

اه انقطعت في منتصفها ، وكزت التي ستضع ساحقة اسنان فكيها ، ثم نترت راسها فارتطم بجدار السرير الخلفي ، وراح العرق يتفصد من كل جسدها ، وارتفع الطلق

صاحت القابلة اعطوني وعاء

جو الغرفة يفيض قتامة ، والهواء منهك . والمراة المفتوحة الساقين ، تئن انينا حجريا يخرق الجدران والابواب الموصدة وعلى المنضدة كانت هناك مشارط ، واقمطة ، واوعية نحاسية ، ادوية واكفان بيضاء

اسماعيلَ أم عيسى ؟

من الذي قال لابيه يا ابتاني رايت احد عشر كوكبا والشمس القمر رأيتهم لي ساجدين ؟

ــ يوسف بن يعقوب

وازدادت التراتيل الكنسية في صباح ذلك الاحد

توغل اسماعيل بين القصب والشيح كانت الارض طرية دبقة تحت قدميه ، احسها تختلج كالبيض النيء غب انحسار النهر وبصعوبة راح يسحب قدميه فوق الطمي . وجاءه نباح الكلب من بعيد فناداه ارعشه صفير أفعى داسها فانسربت بين الشيح وعلى نحو لامع مرقت في ذهنه كلمة أبيه الحية امرأة غضب الله عليها فمسخها أفعى. ومن أجمة وثب ثعلب، أحدث جريه صوتا أجش موحشا شيء ما في الداخل بدأ يختل ، وراح البط ينفر مذعورا من أماكن قريبة منه ، ومن بعيد حيث يجري الكلب ، ولايراه

. الفجر اللعين متى يطلع ؟

وفجأه رعب البراري هــذه الوحشة لليل جهم ممتــد بــلا حدود ثم هذا الركام من الغيم الكالح والرعد

خلفه كان القصب والشيح ، ممتداً كهذا الليل ، وامامه كان القصب والشيح ، منتصبا كالاذرع الآدمية كثيفا راح يلطم وجهه وصدره يعرقل سيره والارض تهتز ولما يطلق طلقة بعد

ـ متى تسافر ؟

ـ صبــاحــا

ـ لن تعــود الى اسمرة ؟

ـ قــد يمضي زمن طويل قبل ذلك

واشعلت له لفافة مصت منها ثم ناولته ، وابتسمت بخبث.

ـ اسمعني اغنيتي

وادار المسجلة

وسقته من كأسها ، وشربت وبدت الغرفة عائمة بالدخــــان ورائحة الصندل والجنس

دوار رجل وامراة غريبان في عالم غريب ، في غرفة معزولة ، واغنية جنسـية ، وبين العينين جسر من وجع وحزن

ـ هل عرفت امراة قبلي ؟

وسألها ان كانت قد قرأت فرويد فاجابت بالنفي . وسألها عن طفولتها فصمتت ، وصمت

ـ لماذا تكثر من الاسئلة ؟

واستطردت انت رجل سياسي

ورنا اليها بتركيز ورسوخ ولم يجب

ـ ولك مهمة في اسمرة

ـ نخبــــك

ورفع كأسه. احتسى على مهل بينما افرغت كأسها. وقبلها.

ـ مهمتي أن انــام معك

وضحك بفزارة

ـ قبل الفجر سيأتي رجل ويأخذك معه

بطيف ابتسامة مسح كآبتها لاتبتئسي أنا سائح ولا صلة لي بمثل تلك الامور

ـ الغربــاء هنا مشبوهون وأنا مكلفة بتسليمك

ومد لها ذراعه دعينا نرقص وقاما

موسيقى غابية مشحونة بالمطر والحزن ، شالت والتحمــا فوق أرض الفرفة. بحنان شهوي ضمها أفعمته رائحتها رائحة

انثى حارّة تلتحم بجسده داخل ليل موحش ، في بيت وراء تخوم المدينة

طقــوس

حلم يقظة وبين الحــلم واليقظة خيط شفاف يُحس ولا يُرى له رائحة كالموت احيانا ، كالجنس ، كولادة شيء من تحت جلد الانســان أو جلد الارض

الافق يلمع ثم الرعد طبــول افريقية متوحشة داخل غابــة مظلمة ، موحشة هي الاخرى

دوار الغرفة تدور والموسيقى والروائح شــفة ابنوسية حارة التصقت بشفتيه ضغطت ضغطت ايضا

ـ أخي ضابط في الجيش الاثيوبي

وانهمرا على السرير

غنت الغبطة   انا ريح شرقية قادمة من وطن الحب والمـوت أخترق النفس والجسد   أنشر الروائح لم لا أكون .

ومن سماء تجيش بالغضب ، انهمر المطر   مطر محمل بغباره رائحة الفرين   وعلى اسماعيل هبت ريح مشبعة بفزع

أحس من لطم القصب والشيح ، والريح والمطر ، بانه عـلى وشك العمى ، وانه في تيه وسط عالم موحش   وبـدأ جسده يرتعش .

موسيقى الحجرة حزينـة جنسـية   والمراة المتالقـة جنسـا مقبولا ، راحت تتأوه ، مختلجة بايقاعات جســد يخترقه برق كان الفضاء مضمخا بالروائح .

طقوس أخرى ، واهتز أكثر نواس الزمن

ارتفع الطلق وصاحت التي تتمخض جنسا مرفوضا صيحتها الاخيرة ، ثم دخلت الغيبوبة

واستعدت القـابلة

وارتفع النشيج الكنسي وسط رهبة الفجر

وثبة   تلتها أخرى   هاربا من عنكبوت الشيـــح والقصب هاربا من المطر والريح وصوت الرعد

واحتضنه الطمي

اسماعيل اني ارى في المنام اني اذبحك !

ورفع قدما فغاصت الاخرى اكثر   بعنف رفع الاخرى لكن الثانية غارت   غارت   حاول الاتكاء على البندقية ففـابت في رخم الطين

الطمي الخادع   الطمي القذر

وبدأ طلــق آخر   شـد بقامته   بكل طــاقة الانسان ورفضه للموت ، ونهد الى الاعلى   سحب قدما رماها الى الامام ، وحاول سحب الاخرى   طمي آخر ابتلع الاولى   ثم ابتلع الثانية
صيد   بط مد الافق يخفق فوق راســه   صوته يــدوي وشال بعزم   بضراوة وحش محاصر رافعا راسه نادها : يا الهي.
وسمع صرير قدميه وهما تغوران   اسماعيل   أين قوتك ؟
ورفع صدره ناهدا نحو الاعلى فمال ، اختل ، ثم كبا فــوق الطين   وعلقت يداه   غاصتا   خانتاه   يا الهي
– من التراب والى التراب تعود
وعلى مهل راح الطين يمتصه   وصل الركبتين   اختلج   شد الى الخلف   وراحت يداه تنسحبان ببطء من دبق الطمي   سقط على قفاه منكسرا   وهو مشبوح على ظهره نــده أيضا : يا الهي ايــن انت ؟
وقـــام
كان الآن واقفــا كالصقر وسط الطمي الذي غطى أعضــاءه التناسلية   وشعر بصقيع الغرين يخترق روحه ثم يسكن فــي الوتين   وبهدوء وسلام راح يغور وسط ظلام العالم راح يغور
شارف الطمي عينيه المتجمدتين، ولم يكن سعيداً ولا فرحا كان منهكا مستسلما   ورأى السماء تصحو ورأى القمر والنجوم.
أحد عشر كوكبا   اثنا عشر   كواكب مباركة ، تسبح في فضــاء نيلي فسيح   وكان هناك ، بعيدا بعيداً ربه الذي ناداه
من بعيد جاءه زقو البط ، فرحا مذعوراً ، كزقو الطفل الذي هبط الآن من رحم المرأة ، كالايلاج الذي تم الآن بين جسد المرأة الفرح ، وجسد الرجل الذي سيسلم في الفجر
وغمر الطمي العينين ، فأغفى

العكر

« غيلان الدمشقي أحـد فلاسفة المعتزلة الاوائل . قال بفكرة الحرية والاختيار معارضـا فكرة القضاء والقدر .

هاجم ظلم الامويين وثراءهم على حساب الشعب فحقدوا عليـه . ولاه الخليفة العـادل عمر بن عبـد العزيز شؤون المسلمين فنـادى فقراء الناس : « تعالوا الى متـاع الخـونة الى متاع الظلمة » .

وراح يوزع خزائن الامويين عليهم . في خـلافة هشام بن عبد الملك قطعت يدا ورجلا غيلان بأمر من الخليفة لكن غيلان استمر يهاجم ظـلم وثراء الامويين قائلا فيهم : « قاتلهم الله . كم من حق أماتوه ، وكم من باطل قد أحيوه ، وكم من ذليل في دين الله أعزوه ، وكـم من عزيز في دين الله اذلوه » . فوصل الكلام الخليفة فارسل اليـه من قطع لسانه فمات فكان أول شهيد معتزل » .

- ١ -

وقال الجد لحفيده الطفل وخاطب الوالي الشاعر الفتى بيدك حملت كتاب قتلك أيها الشاعر ثم تلا عليـه الكتاب الذي حمله من الملكِ وطلب منه أن يختار ميتة

وتروي السيرة يابني أن الشاعر الفتى طلب ان يؤتى له بـزق من الخمر وان يحبس في غرفة حتى الصباح وجاؤوه بزق من الخمر وحبسوه في غرفة معزولة وأرتجوها عليه

وسأل الطفل جده لاهفا وهل قتل الـوالي الشاعر الفتى يا جـدي ؟

قال الجد متابعا في منتصف الليل بعد أن هجع القـوم ، فصد الفتى شريانه وراح يحتسي من الزق وهو يتأمل دمهالنازف ويقول الشعر حتى مات

ولما أصبح الصباح أرسل الوالي يطلب الشاعر فوجدوه ممددا بين دمه وخمر الزق المسفوحين على الارض وقرؤوا على جدار الغرفة أبياتا من الشعر كتبها الشاعر بدمه غضب الوالي مـن الامر وطلبان يؤتى بالشاعر الميتوامر جلاديه أن ينفذوا فيه حكم الاعدام ميتا ثم يُعلقوا جثته على ابواب المدينة

بحزن سأل الطفل جده ولكن الم تقل لي ياجدي بـأن الله أوصى الانسان رحمة بأخيه الانسان ؟

تنهد الجد العجوز متعبا أجل يابني أجل لكن الانسانظالم بطبعه وحقود يضيق بنور الحق حتى يصير كخرم الابرة ويمتد بظلام الباطل حتى الفرور والقتل

وصمت الجد مليا ثم قال الم تسمع بأخبار غيلان الدمشقي يـا ولدي ؟

– ما أخبار غيلان يا جدي ؟

– تكفيك اليوم حكاية الشاعر هيا الى النوم وغدا اروي لك خبر غيـلان

في الصباح مات جد الطفل طاويا معه حكاية غيـلان وسائر الحكايا التي لم ترو ومنذ ذلك اليوم افتقد خلدون انس الليالي.

من ريفنا القاسي نبت خلدون ، في قرية تشبه معظم القرى الاخرى بيوت مـن طين وازقة عفنة وحوانيت ، فيها مدرسـة وجامع ومخفر للشرطة ، وفيها ناس

قبل أن ينمو خلدون ويطرد من بيته والمدرسة ، كان طفـلا كسائر الاطفال لكنه بعد ذلك صار شيئا آخر غريبا ، حزينـا ، يروي كجده حكايا عما يراه ويسمعه في القرية

أم الطفل وابوه على قيد الحياة ، كذلك بيته لكن خـلدون بعد أن مات جده طرد من البيت والمدرسة في يوم لاهب من أيام حزيران ونما وحيدا ، بيته البراري والخرائب ، ودثـاره الليـل والريح والوحشة العارية

نسجوا عنه قصصا غريبة ، وسموه القط المتوحش ، وقالوا انه يسرق الكحل من العين ، واذا ما انفرد بطفل لايرعوي، عن مص دمـه .

فتحاشاه الاطفال خلدون ولد قذر لاتقربوه ونبذه الكبار فازدادت غربته

قالوا ان روح جده تقمصته ، وان حكاياه القديمة تناسخت في روحه الشريرة اينما حلّ ينشر الفضائح دونما خشية من الله أو تقاليد الناس عن الشيوخ يحكي وعن المرابين ، يهزأ من معلمي المدرسة ورئيس المخفر ، وبجرأة مراهق يتحدث عـن الخيـانات الجنسية الأقوى هو الذي يسود في هذه الدنيا وللاقوى نهاية

يقول ولا يخاف .

ولو سالت ذلك الطفل الناضج ماذا تعني بالاقوى ؟ لفاجأك بجواب غريب : الذي يفاجيء وهو خائف

ــ من أين تعلمت هذه الحكم ؟

ــ من الدنيا أم المدارس

ــ ٢ ــ

ذات ليلة يستيقظ الطفل مذعورا في فراشه بين الحلم واليقظة يرى رجلا عاري الصدر راكعا فوق امه وهو يلهث تنتابه حالة رعب فيصيح بالرجل ما الذي تفعله بأمي ؟

مرتعدا ينتفض الرجل العاري يتناول عصا سوداء وكئت على حائط طلي بالحوار ينهال بها فوق الصبي نصف النائم في فراشه ، ونصف المستيقظ كلب ابن حرام خذ هيا نجس خنزير هيا إخرج من بيتي .

باللحاف الوسخ يحاول الطفل ان يحتمي الضربات تهوي كالمطارق ، يحسها تسلب روحه من بدنه فيتكوم كخرقة تستمر الضربات من يد فقدت صوابها ، والطفل يئن ، ينده بصوت جريح ، والرجل شبه العاري مايني يصيح هيا ماعاد لك خبز في بيتي

ويتململ الطفل موجعا

بعد أن تعيا يد الأب يقذف العصا يسحب الطفل من فراشه ويجره فوق الارض وبركلة من قدمه يقذف به خارج البيت القرية ظلام سكينة وصمت والعالم في رأس خلدون خذروف يدور ، وهو المنهور في أزقتها يسري نصف عار . شبه غائب عن الوعي وفوق لحمه الغض بصمات العصا الابوية السوداء.

« الى اين ؟ »

ويمضي لا بيت بعـــد اليــوم لا دفء لا أب لا أم البراري والساحات صارت المأوى وفي تلك الليلة تعانقه الرعشـــة والصقيع الليلي في عب شجرة

في قرية خلدون كان الناس يحبون ويضحكون ويخونون يصلون ويسكرون بطمأنينة رضية تحت خيمة من أمان كل شيء كان يجري بطاقة الاستمرار بنسيان زمني اعتاد نفسه باســم الله مجراها ومرساها

خلدون وحده كان مؤرقا لم يكن يضحك ولا يحب ولا يخون ولا يصلي ولا يسكر من الجميع مزدرى ، لكنه كالشمس كــان يرى الدنيا ويحكي كما تحكي الاشعة وكان يغني

في اعماق نفسه كان يحس بانه شبيه غصن بتر عن شجرته ، وان نفوس الناس اذا قست اقطع من سيف مسنون

حاول ان يعمــل حمالا وصبي مقهى وبائع عربة يد واجــير مزارع ، وفي كل مرة كانت كراهية الناس تطارده ابوه يقول عنه : انه سارق ويسطو على الاعراض والناس يشون : الذي طرده ابوه والمدرسة سيء لايؤتمن حتى الاطفال من رفاق المدرسةكانوا يتحاشونه ويحرضون على ضربه واستمر الطفل كلما طرد من عمل يبحث عن عمل آخر ، وعندما يشعر بتفاقم ضغينةالقرية عليه، يهجرها زمنا باحثا عن عمل ، ثم لايلبث ان يدفعه حنينه اليهــا بينه وبين قريته اقام الزمن حبا خفيا يشبه عشق الطائر لعشــه الذي دهمت فراخه افعى

في حر الشمس يحلو له ان يتكيء مختفيا وراء حائط يرنو الى اطفال المدرسة الخارجين بهرج يتأملهم اذ يتبددون في الساحة صارخين كأرانب طال حبسها ينقسمون زمرا ، يلعبون الدحــل والاستفماية بغش مستور خفية يدخنون ، وعلى الارض ترســم

بعض الزمر صورة الموجه. يتقدمون واحداً تلو آخر ويبولون عليها. زمرة اخرى تغافل عين الموجه خلف بناء المدرسة قائد الزمرة تامبو يتقدم من الجدار يرسم شكلا يوحي بجسد امرأة قسم من الزمرة يراقب حركة الموجه والقسم الآخر يتقدم ، يعانق المرأة بشغف يلتصق بها ويبدأ التأوه والهمس كل طفل يختار طفلته من مدرسة البنات المجاورة ويجسدها في الصورة المرسومة هكذا بالتناوب حتى يقرع الجرس فجأة تعود اليهم ملائكيتهم وبكل وقار الاطفال وهدوئهم ينتظمون في الصف

ويتذكر خلدون كيف طرده المدير ذات ظهيرة تامبو وشى به : هو الذي اخترعها قال لنا انه تعلمها من ابيه يومها قرر مجلس المعلمين طرد خلدون رجل مفسد في ثياب طفل

— ٣ —

ويكون الفضاء ساكنا صهد الشمس يطعن الرأس مثل خنجر مسموم ، ومياه المستنقع راكدة ، على سطحها تسطع الشمس كسيف بدوي سن للثأر. ومن الافق لاتأتي طيور غير هذه الخطاطيف السود تنقض سافة المياه ، محاذية الطحلب ، وكرؤوس الرماح تنشب في فضاء صحو

ــ خلدونِ امستيقظ انت ؟

ــ أجل ياجدي أجل

حكاية قديمة رواها الجد عن صياد خرج يصطاد الوحوش فعاد خائباً في منتصف النهار التقى بمستنقع ضحل تؤمه الخطاطيف الفرحة البريئة فراح يصيدها

وتمر الايام فتتبدل أحوال خلدون يصير الطفل اليف البراري ، يحتش عشب القفر اذ يجوع ، ويصير الناس غرباء في عينيه يغني ويروي حكايات ، وفي الليالي المقمرة يسري باتجاه

البحر ، لكن حكاية الجد عن الصياد وغيلان الدمشقي تظل تؤرقه وتتنامى في وعيه واحلامه

في سهرات الصيف والشتاء يسمر الشباب في المقهى المطل على البحر يحتسون الشاي والخمر ويثرثرون في كل امور الدنيا ، ويلعبون الورق ، وفي لحظات الملل يبحثون عن خلدون ليرفه عنهم بحكاية

يسأله أحدهم وهو يبتسم يا الله هات ياخلدون آخر فضيحة يتناول لفافة يشعلها ويعب منها نفثا عميقا ، يبتلع معظمه ويزفر ماتبقى في فراغ المقهى كان ياما كان ياشباب. ويبدأ بسرد حادثة المعلم الذي فاجأه يعري تلميذته في حقل مزرعة المدرسة

يمثل لهم كيف كان المعلم يرتعش وهو يتلفت خشية ان يداهم وجهه في لون الجمر وعيناه قد اتسعتا والتلميذة بين ذراعيه تختلج كحمامة بين كفي عقاب

ومن اعماقه يضحك وهو يصف حركة أصابع المعلم تفك أزرار سرواله ، وهو يراقبه لاطيا في زاوية السياج بين سنابل القمح واذ يصل خلدون الى حالة التطويق والضم والتأوه ، وبداية الانبطاح ، يشير بكلتا يديه وهو يطوق الفراغ هو ووه ويهبط عليها كالجمل الهائج

وباستطراد ممتع يسأل خلدون الحضور ان كان احدهم قد راى جملا هائجا ، واذ يجيبون بالنفي ، يسرد لهم كيف راى الجمل الهائج في احدى رحلاته مع البدو عندما يهتاج الجمل ياشباب تنطفيء الدنيا في عينيه فلا يرى غير فريسته عيناه تجحظان وتحمران كجمرة نار كمجنون يعدو خلف عدوه فاما يصله او ينفجر قهرا هكذا كان صاحبنا المعلم

ــ وصل بغيته ياخلدون ؟

بتجربته يدرك انه قد شدهم الآن ، وانهم سيطردونه بعد ان تنتهي نشوة الاستماع ، فيبدأ معهم لعبة التعذيب يطيل الوصف شارحا تقصف السنابل وصدى التأوهات ثم انتشاءه هو بالوضع اللذيذ ويسألونه بضيق ايه وبعدها التذذت ؟ ويهز رأسه ساخرا ثم ببرود يجيب هيه هو يأكل اللحم وانا المرق ! ياحيف. اذن انا لست خلدون

بعد نفث طويل من لفافته ، يشرح كيف وثب عن السياج صارخا وهو يبتعد كالريح وي ويع هو هو وفي غمضة عين يندس بين الاطفال مشيرا نحو حقل القمح

ـ كذاب

يقولها تامبو من الشرفة يتوعده ويثب مختفيا في ازقة القريـــة

بعد أن تكون الحكاية قد افرغت شهواتهم ينهرونه تامبو

سيكسر راسك يوما ياديوث هيا هيا كان أبوك محقا يوم طردك

وفي أخريات الليل يتدحرج عبر الازقة ، مارا بما تبقى من حوانيت القمار ، يتلصص من خصاصاتها ، مستمعا الى آخر ايقاعات الكفر والشتائم ، رانيا الى الوجوه الصفر الكظيمة وقد احتقنت بالكراهية وسوء الحظ

على غير توقع يدوي صوت خلدون في أعماق الليل النائح فوق الجميع بالاغنية الاثيرة الى قلبه

خاين يادهر ماعندك عـدالي

حبيبي الكنتْ حبّو صار عدالي

بعـد ماكنتْ عنقوداً عـدالي

دبلتْ وكسّر غصوني الهــوا

واذ ينشق باب الحانوت ، ويطل شبح صاحبه شاتما مهددا يكون الطفل قد سلت نحو الوديان باتجاه كهفه

— ٤ —

يشعل الطفل عود ثقاب وهو يهم بالدخول ، ثم يشعل آخر باحثا في جوانب الكهف عن عقرب او افعى يفتش سريره المكون من أكياس خيش وخرق تحتها كومات من قش ، واذ يطمئن يستلقي بوداعة في الظلام التام

قبل أن ينام يعبر على شاشة تداعياته شريط حياته حكايا جده القديمة عن الشاعر الذي قتله الملك لانه هجاه ، وحكاية المستنقع والشمس والصياد والخطاطيف في الاعماق تتلون الحكاية الاخيرة تصير هاجسه الدائم واذ يعجز عن تفسيرها يتأسى مدندنا مقطع اغنية حزينة ، وفي صدره يشيل نحيب خافت مكنون لايرتقي نحو عينيه يظل هناك في الاعماق التي حجرها الاغتراب بعد حين يرسو خلدون في نوم عميق

قبل الفجر تظهر افعى سوداء تسعى نحو يديه تسبح فوق قدميه متسللة تحت ثيابه ، ثم بهدوء ترتقي فخذيه العاريين ومابينهما يحس حراشفها الملساء تدغدغ لحمه ، ويشعر بزحفها الذي وصل بطنه فصدره قرب الرقبة ينتصب نصفها راسها في مواجهة ارنبة انفه نأمة او تنفس وتكون النهاية ، فيتحول الى حجر والافعى تربض فوقه ومضة وينسى الافعى فتبرق في مساحة الظلام صور كالاطياف اطياف بشر وحيوانات وشجر تمتزج مع كتابات قديمة لايعرف قراءتها اشارات تشبه الطيور التي وصفها جده تشبه الخطاطيف لكنها ليست هي تتطاول ، تستدير ، ترتفع ، تنخفض تصدر اصواتا مفجوعة كانما هي في ضيق ، او انها تذبح بعد حين يراها تهوي في حفرة سوداء محدثة وهي تقع اصواتا شديدة الخفوت الاصوات ليست اصوات الخطاطيف . اصوات بشرية يسمع صداها داخل الحفرة . الدنيا

كأنها في حالة حرب يتمنى لو يستطيع ازاحة هذا الظلام الراسخ. الظلام الضيق ليرى الاطياف تتنامى وتتغير والظلام عميق اطفال وطفلات عرايا في أوضاع جنسية ليسوا أطفالا هم تارة طيور وتارة حشرات صغيرة يطارد بعضها بعضا لاتلبث ان تنزوي وراء تلع التراب. الناس فزعون والطيور أيضا من شيء ما غير مرئي وهو مقيد لايستطيع الحركة ولا الصراخ فجأة يرى كل شيء الناس والحيوانات والطيور قد حشروا في مكان ضيق موحل يحاولون الهرب لكن الوحل يشدهم فلا يقوون على الحركة يراوحون في اماكنهم مصدرين اصواتا غريبة الافعى تصير في ضخامة شجرة جميز قديمة تميل قليلا قليلا نحو الناس المحشورين واذ يصل فمها المفتوح قرب رؤوسهم ينتفض خلدون

مذعورا ينهض يفتش الكهف بحثا عن الافعى فلا يلقى لها أثرا فيتذكر

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تدهمه فيها مثل هذه الكوابيس مع الزمن الفها ، غير ان الافعى ظلت تخيفه

في الليالي التي تلت بدأ خلدون يتحاشى الكهف عرفته سطوح البيوت ورصيف المدرسة وقبة المقبرة حيث يتوسد اولياء القرية الصالحون

واستمر يسرد الفضائح بلا خوف

— ٥ —

على المقهى المطل على البحر كان يداوم أحيانا في الليل يلتئم شمل الشباب في السياسة والدين والجنس والخمر والقمار والحرية ، يحكون يلتقط احاديثهم ، واذ يمل ينحدر صوب البيوت والحوانيت والساحات ، ينصت ويختزن مايرى ويسمع ثم يغادر الناس وهو يغني .

في احدى الليالي تآمر الشباب عليه فأسكروه   في أعماقهم كانوا يدركون انه طفل غير عادي ، وان مايرويه يثوي في أعماقهم لكنهم لايجرؤون على البوح به ، فكرهوه وأحبوه وغلفوا حبه وكراهيته برداء من الهزء والضحك ، والحزن الخفي الضامر

في تلك الليلة شرب حتى دارت الدنيا في عينيه   شعر بجسده خفيفا يمكنه أن يطير ، ولاول مرة تجتاحه غبطة لانهائية. ببصره شبه الزائغ تفحص الحضور وتفقد الشرفة

سأل الحاضرين   هل الافعى هنا ؟

– من الافعى ؟

– زلمة رئيس المخفر وجاسوس المعلمين

– تامبو   كاسر رأسك ؟

– رأس خلدون يكسر   أما حكاياه فستحكيها الريح

تنطع أحد الشباب   لاتهتم خلدون نحن خلفك   تامبو كلب جبان   هات ماعندك

فرحا غنى   خاين يادهر   واذ وصل الشطر الأخير غيّره

الارض للحب مفتوحا عدالي
ونجم خلدون من صغرو انطفا

خيل اليه انه لمح طيف كآبة ارتسم فوق الوجوه   استمر الطيف بضع ثوان ثم انفجر ضحكا ومرارة وسخرية   احس خلدون انه خان نفسه   وسمع من يعترض على نهاية البيت   قليلا وجم اهتزت اعماقه اسى   بكى من داخل   قال   اخطأت سامحوني

وطلبوا ان يروي فضائح   الفضائح أفضل من الغناء   فجأة ينفجر خلدون بضحكة غريبة   يتذكر الشمس والخطاطيف والمستنقع   وكالبرق تعبر شظايا من الحلم

ـ كان ياما كان ياشباب

ويبدا يروي حادثة امام القرية الذي سرق ليرات جدته الرشاديات. كانت الليرات الذهبية امانة وضعتها الجدة في حوزة الامام ايام جوع سفر برلك بعد سنوات طلبتها لكن الامام الجليل انكرها باجداده واولياء الله ومحمد النبي أقسم كذبا هللوب وابتلعها ثم تلا فوقها آية ليسهل هضمها وهو يترنح من السكر أقسم بقطع يمينه ان كان هذا الامام من ظهر أبيه واذ سألوه من ظهر من يكون؟

قال من ظهر سلالة سلطان عثماني اسمه رشاد

وانتابتهم غاشية ضحك

اغتنم فرصة استغراقهم في الضحك وراح يحكي كيف ينقل تامبو ليلا رشاوى رئيس المخفر من الدجاج والبيض واللبن والقمح من بيوت التجار والمزارعين وروى حادثة زوجة المختار التي رآها تخرج ليلا من بيت رئيس المخفر وهي محجبة مذعورة، وكيف لمحت شبحا في الليل كان هو فتعثرت بحجر وسقطت فشج راسها ياشباب اذا كنت كاذبا اقتلوني غدا اذا مر احدكم بها فلينظر الى جبهتها المعصوبة طبعا عندما سألها المختار مابك ياامينة ؟ قالت له كنت عائدة من زيارة ضريح سيدنا الشيخ جعفر بن نبهان واصطدمت بعتبة القبة قدس الله سره

قدّسوا ياشباب قدّسوا يا الله كاس القداس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ويرفع كاسه ويصفيه موجة من ضحك ترتفع تضطرب مع موجات من خوف وتوجس

خلدون ملك السهرة يسبح فوق رؤوس القوم قيثارة الفارابي التي تضحك وتبكي وتغضب وتنيم

احد الجالسين يسأل خلدون يخرب بيتك . وصلت فضائحك الى السلطة الا تخاف من السجن ؟

يسأل بدوره كلب السلطة موجود ؟

فيجيبونه بالنفي

منتشيا يهز راسه كأنما دخل الآن حلقة ذكر فيتوهج اخاف مم اخاف ؟ ماذا املك حتى اخاف ؟ الاراضي التي املكها ولا تغيب الشمس عنها البيوت والفنادق التي ورثتها عن جدي سيارتي زوجتي المناصب الحكوميةالتي اتقلب فيها وارتشي منها ام الذكريات العذبة ؟ انا خلدون العابر في هذه الدنيا الارض كلها فراشي والسماء غطائي لاحدود ولا قيود اينما طاب لي المقام اقيم عصفور مهاجر في دنيا الله الواسعة . رفيق الشمس والليل ملكي آنا والريح صحاب من يوم ماطردوني من البيت والمدرسة. بيني وبين البحر والقمر الفة قديمة. الذي لايملك شيئا لايفقد شيئا الله يسامحكم بكل هذه الممالك

ويصمت يشعل لفافة الصمت افعى تقف في مواجهة ارنبة الانوف والافواه المغلقة ، وخلدون صار الآن كالرعد صحبة الطبيعة والوحوش ولا صحبتكم منكم ما جاءني غير البلاء يادود المستنقعات صدق جدي يوم قال يأتي زمان غريب ياخلدون يصير الناس فيه غير الناس والدنيا غير الدنيا زمن لا لون له ولا طعم يصير الكذب فيه صدقا والهياج عقلا والظلام نورا عالم هو الى عالم الحيوان اقرب القوي يفترس الضعيف، والغني يقتنص الفقير ، والجاهل يحكم العاقل ، والجبان يسوس الشجاع ، والمراة تمتطي الرجل زمن يقول الناس فيه السكوت من ذهب واليد التي لاتستطيع عضها قبلها واذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا والعين بصيرة واليد قصيرة وفي بلادالعميان ضع على عينيك عصابة

وفي تلك الليلة اضاع خلدون صوابه هاجم الشباب ووصمهم بأنهم جبناء وانذال ، وان الافعى رغم سمها الزعاف اقل اذى من سمومهم الغافية في صدورهم ، وقال بأن الذي يرى الباطل ويستمر

فيه ، نذل مرتان الاولى لانه رآه وسكت عنه ، والثانية لانه لـــم يرفع سيفه في وجهه

مثلكم كمثل الصيـــاد الذي قتل الطيور البريئــة إذ عجــز عن صيد الذئاب والخنازير

ها ها ها ونجم خلدون من صغروا انطفا

ليلتها ضاقت صدوررهم فانفجروا في وجهه شتموه ، وضربوه ، وقذفوا به على درج المقهى وكان متعتعا من الخمر

— ٦ —

من الفجر خب فوق الاراضي البور شمس حـــادة أشعتهـــا كأنياب الضواري ظمأ واعياء ولات صيد صمت من الداخل يشبه صمت البحار ظلمة موحشة تنفرد بنفسها في عـــــالم ضوضائي حنق

كجناح هذا الطائر المخترق أشعةالشمس ، تبدو تلكالاعماق. حركة صغيرة في الزمن والمسافة وينشق الكون عن نهار تعجز العين المجردة عن حصر الوانه .

في الريح جامح طـــائر الربيـــع يشطر الفـــراغ بجناحيه المبسوطين ، مزهوا متلويا فوق البحيرة كفارس جاهلي يمخض الصحراء وأخيرا يلوح الماء .

فضّيا تحت الشمس يبرق ، حوله شجر وظلال في الافق تتراءى الطيور ، تمارس العابها ، تروح وتجيء منتشية فـــوق البحيرة يخب اكثر هاربا نحو الظل والماء

تصير البحيرة مستنقعا غطاه طحلب قديم كحيوان ظاميء يتمدد ويشرق الضحل العكر الى جذع شجرة يستند بعد ان وصل عالم الامان يراقب الطيور كالسهام تعبــر الخطاطيف بينها وخلفها سنونوات صدرها ابيض ، خائفة ، مغتبطة وهيتخرق

اهاب الريح اىامه تعبر يسمع هوي الاجنحة يرى مناقيرها والذنب المنفرج تنقض ملامســة سطح المستنقع ، غارفة حسوة ماء ، ثم تشيل نحو الاودية في فضاء صاف ثم تعود دوران لولبي يرسم خطوطا اهليلجية ومتعرجة عبر فراغ تحته مستنقع راكد لعبة سيرك تبدو مطمئنة متفرجها الوحيد المثار صيــاد خـــائب

عشرة أطفال يتقــدمون يرتدون مراويلهم الســـود وعلى وجوههم اقنعة ، وتامبو يقودهم بصوت رجل مقبل على معركــة

يصرخ القائد هاهو طوقوه

من خلف الجدران يثبون جداران عاليان بينهما خلدون الاطفال المتشحون بالسواد يحاصرونه من الخلف والامام ارض الطريق وحل ومياه محرورة وخلدون اعزل

من صوته الذي كان يدوي في الليل خاين يادهر عرفوه فجأة يتهدج الصوت. تقطعه هذه الاشباح التي انبثقت من ضمير الليل الافعواني مرة اخرى الافعى انقسمت الآن كما تنقسم اذرع أخطبوط يجابه فريسة الايدي تلوح بعصي وقطع حديد كلهــا تبدو سوداء تامبو وحده يجر فوق الوحل جنزيرا اسود هـــو الآخـــــر

خطاف جامح قاتم كليل جهم ، يلف الفضاء أميرا وهو يزقو ، والشمس في سمتها الانفجاري نصف نهار ولم يصطد غير السغب والتيه والاشعة والجري

الاعصاب قنبلة حل حزام امانها ، والخطاف يلهو مبهورا بفضائه ، بهذا المدى المفتوح كصحراء لاتخوم لها

خلدون محاصر

يتلوى الجنزير كرقطاء في فضاء ارقط خلدون وحده الابيض في مركز الحصار : اشته ميتة يقولها تامبو ساخرا .

حوله يتلفت فلا يرى غير المياه والوحل ، وغير الايـــدي المسلحة ، وهذه الاوشحة تتقدم باتجاهه

الاشعة تخطف البصر بوهجها الالاق الصياد سيقتل

ـ اخيرا وقعت ياخلدون من ينقذك الآن ؟

في سره يهجس ومن انقذني فيما مضى ؟

وفيما مضى كان هناك منفذ الآن الطرقات مسدودة ، وتامبو رجل قاتل في اهاب طفل ، ولا سلاح

يبدو فاقد القدرة على المحاكمة ، خطفا يدرك بانه اخطأ عندما اختار الفناء في الليالي بدون سلاح

مافائدة الاستدراك وهم يتقدمون خب خطواتهم في الوحل. صلصلة حلقات الجنزير الرعب الآن هو الحقيقة .

بالغضب امتزج وميض الحقد ، فتأرث هياج هوى مـــن طرف الجنزير السائب على جسد الطفل الاعزل آه نوت ان تخرج فضغطها الى الخلف وثب متحاشيا الضربة فلطم وجهـه سيخ من حديد ، احسه يكوي راسه على وجنتيه وضع كفيه ، وكور جسده فتلقاه الجنزير ضاغطا من السرة حتى الكتف الايسر عميقا تأوه وشعر برجليه تصطكان وانزلق الوحل تحت قدميه حاول ان يدفع شيئا مشرعا فوق راسه لكنه أحس بأصابع يده اليمنى تتهشم سقطت فرفع اليسرى كانوا الآن في محاذاته أصوات وحشية عصي تنهال متناوبة ومتوازية ومتقاطعة ،وكان هو في المركز تماما في الوحل راكعا على ركبتيه يحاول ان يحمي راسه بسلاميات تفرز على مهل دمها الحار لم يكن قد فقد صوابه حتى الآن. كان بامكانه ان يسمع صليل اصواتهم ممتزجة بالخب فوق الوحل ، يقتربون ، ويتراجعون ، يتناوبون الضرب وكان بامكانه ان يحصي بين فينة وأخرى عدد الضربات قبل ان يخور ويتهاوى ممددا فوق الوحل .

الآن بدأ الضجيج يتخافت احسوا انهم اهمدوه فابتعدوا عرف ذلك من صوت الخطوات التي تنأى كانت هناك في زاوية ما من وعيه بقية ومضة ، حارة ، مضيئة ، لما تنطفيء

قليلا ابتعد تامبو على عضده لف الجنزير واستوثق من نصفه المقبوض بين أصابع كفه ، وكما تهوي فاس من اعلى هوى الطرف المفلت على منتصف الجمجمة المكبوبة الوجه ، فدوى من الرأس صوت كالرعد ، وانبثقت شمس حارة وانطفأ مصباح الوعي بهدوء مرتعش تقدم بعد ان رمى الجنزير امسك شعر الرأس الملوث الحار ورفعه فالتقت اربعة عيون عينان هائجتان وعينان اسيتان وسدد الصمت خنجرا

كأفعى كان الجنزير غائصا في الوحل ومن يد الطفل الهائج نتأت شفرة موسى حادة قلب الجسد المطروح على ظهره كان الفم نصف مفتوح سحب لسان الطفل منه ، وبحركة مرتعشة سريعة بتر اللسان من منتصفه ململة تشبه حركة طائر في آخر النزع ، وصوت أنين خافت مبهم ، كل ماصدر عن الطفل المصلوب فوق الوحل

ـ لن يكون بامكانك ان تروي فضائح عن الناس بعد الآن واختفى

ـ ٧ ـ

وقال الجد وكان ان اقتربت الشمس يابني من سمتها العمودي في ذلك النهار الحار ، والصياد الخائب هناك على حافة المستنقع ، واقترب الخطاف سافا وجه الصياد فأحس بمنقاره يكاد ينفرس في عينيه وكان الهياج قد بلغ أوجه في اعماقه وخيل اليه ان الخطاف يتحداه ، ودوى انفجار على سطح المستنقع هوى الخطاف. اختلج ، ثم تمدد بسلام فاردا جناحيه اللامعين فوق أعشاب الطحلب

وجاءت خطاطيف اخرى ، حومت فوق الخطاف القتيـــل فسقطت قربه حتى الغروب ظل الصياد يرمي السنونوات الصغيرة رماها واذ انهى خرطوشه ورأى الى المستنقع مفروشا بأجساد الطيور البريئة الميتة ، غمرته غبطة فتنفس بارتياح عميق.

لم يمت خلدون .

في الايام التي تلت قرأ سكان القرية حكاية المعلم محفـورة على جدار المدرسة بحثوا عن خلدون فقطعوا يده اليمنى وبعد أيام قرؤوا حكاية الامام المرابي محفورة على جدار الجـــامع جاؤوا به وامام المصلين قطعوا يسراه ومضت أيام فقرؤوا على جدار المخفر حكاية رئيس المخفر الزاني المرتشي منقوشة بخـط بارز ، فضاق صدرهم وقتلوا خلدون

بعد سنين من موت خلدون مات ناس وولد آخرون نمـوا وسمعوا قصة خلدون وتناقلوها واضاف الاطفال عليها انهم في بعض الليالي يسمعون اغنية خلدون الحزينة خاين يادهر ،وصدى حكاياه ، عندما الرياح الشرقية تهب ، ويبدأ حفيف الشجرالحنون في صمت القرية يغني .

الخسوف

قالت الأم : لاتحزن يابني لكل انسان يومان يأكلهما ويمضي.
وكان قد مضى مخلفا وراءه الايام التي مضت والتي ستأتي وقال المتوسد خندقه باق هنا يفصد دمي
على الارصفة واسفلت الشوارع ، كانت المرأة تهيم عارية تطلب سترا فلا تلقى ، وتصيح على أطفالها فلا تسمع جوابا كان الاطفال قد هجروها الآن ، وكانت هي قد افتضت من زمن بعيد ، والعار لايني يلاحق الاطفال أينما حلوا
هاهو يمضي باتجاه الصحراء تحت سماء صيفية في ليل تجتاحه ريح صرصر ، مزودا بالحزن وبكل يأس الارض
جميع الدروب قد سلكت ، والطلاسم ماعادت سرا ، كل أهل المدينة كشفوا السر لكنهم لاذوا بالصمت واللامبالاة ؛ عقلهم الخوف والحزن الكتيم ، والذين مضوا خارج المدينة اختاروا

الفصد أو الصحراء .

كانت المرأة وهي تعبر الشوارع تولول نادبة ، لكن الناس استمروا يعبرون قربها بصمت حجري لامثيل لقسوته

« لماذا الناس ليسوا هم   يشبهون الناس بالارجل والعيون والانوف والرؤوس   غمرهم ذل ختم اسماعهم بالوقر وابصارهم بالعمى »   قالت المرأة لنفسها

ـ ساظل هنا حتى يطلع القمر   حتى أصير والارض عشبا وماء   حتى يروي الدم شعيرات الشجر والعشب   انا والارض حطب ونار   هجس المتوسد قبره

الذي لم يبق له أمل   هناك ، عقله يتحرك بحيوية تشبه سطوع الشمس. ماض نحو الصحراء لا ينظر الى الخلف   في كل خطوة يخطوها يزرع اليأس والحزن   يقول للشجر والحجر والحيوان والانسان : غادروا   ماعاد لكم غير الصحراء

بنواح قديم يبكي الشجر   انا ادفأتك في ليالي الصقيع ويئن الحجر   انا عمرت مدنك   ويصيء الحيوان : كان لحمي طعامك في سني الجوع

ووحده الانسان لايجيب   يسمع ويرى ويلوذ بالصمت يسير   يسير   خببا نحو صحرائه   وهو يخرج من قفص المدينة ينثر الحزن واليأس   يروي عن الذل والاغتصاب ، عن العكر الذي لوث الدم والاطفال وحليب الشدي ، والبلاد التي ينبغي أن تهجر بعد ان فسدت رعيتها وراعيها وتحولت الى مبغى

في يوم عرسها كانت نقية كثلوج البراري   قطعت مسافات شاسعة من الشرق حتى وصلت   كانت حافية ، جائعة ، رثة الثياب ، لكن كل نضارة الارض والقمر كانت تلوح في وجهها
وفي اليوم الثالث دقت لمقدمها الطبول

وفي اليوم الثالث صارت بغيا
وفي اليوم الرابع بدات الحرب
هاهي في الشوارع ماتزال تندب . المارة عيون من صوان لامع .
تقول انا البهية التي من اجلها كان الفرح وكانت الفصول رغيف الفقراء ولباس العراة وسكينة قلوبكم انا
الارض والشمس والشعر ولدت لأجلي اصير في آخر الدهر عاهرة عارية منبوذة في الشوارع
والمارة أعمدة تتحرك لاكلمة ، لالفتة شلال هموم وطغيان من الذل اللاحدود له
قبل ان يمضيا عنها سألاها الى متى يستمر هذا العار ؟
فردت حتى تبلغا سن الرشد
ـ وما سن الرشد ؟؟
ـ سن استلام دفة الريح
وقال الذي يمضي صوب الصحراء انا يائس وكئيب
وضرب الآخر رجله في الارض وأنا سأموت غسلا للعار
كالنقوش الملونة تلوح على الشاشة السوداء اذ تطبق الجفون ، هكذا كانت تلوح صحراء الهارب ، مملكة الذي قرر أخيرا أن يتطهر بالرمل وطقوس اليأس
عالم لا نهائي ، ملون ومفتوح من الاقصى الى الاقصى . مسوى كمهد الصحارى يتأرجح داخل الذهن المشتعل بالحيوية
في الصحراء تموت الضوضاء يغتسل العار بحرارة الرمل .
يصير اليأس المطلق الى نقيضه وفي الصحراء يمكن للعقل ان يعمل بهدوء
ـ لكل انسان يومان ثم تضيف الارض الواطئة يابني تشرب ماءها وماء غيرها
وكوحش مطعون يصرخ في وجهها لكن الارض الواطئة تطؤها جميع الاقدام ولأنك ارتضيت ذلك اغتصبوك في عز الظهيرة
وبهدوء تروي انها تعرف الاشياء ظاهرها وباطنها ، الكذب

والصدق ، الخيانة والنبل ، المجد والعار لكنها لا تريـــد ان تفقدهما وتصير سبية في آخر الزمن

ــ ولكن ما الذي بقي فينا ولم ينتهك ؟ قال اليائس

ويجيب الآخر : الموت

ــ موت موت اغنية الكبرياء القديم والآية التي تتلا علــى قبور الشهداء الموت هذا الكفن الذي تريد ان تتشبح به كـــي لا يقال عنك انك جبان ومهزوم انا لااغنية لي ولا كتاب لا اب لي ولا أم ولا فرح سأمضي عن هذا الجحيم وليكن الطوفان العقل هذه الزهرة المتفتحة ابدا هذه الشمس التي لاتنعس تغيب وراء بحار لتضيء بحارا اخرى من قطب الى قطب تسري. ويظل العقل ناصعا كثوب عرس الام قبل ان تصير الى بغي

عندما خلق الله الانسان اعطاه العقل وتركه حرا

وعندمـــا التقى انسانان عـــلى سطح الارض بـــدأ القتـــل

وعندما اختفى العقل صار القتل شريعة

واذا هاجر العقل احتل الهياج والموت ارض البشر

هوذا القتل والاغتصاب ما يزالان أغنية البشر المفضلة

بيناليأسفي ذراه ، والموت. بين العقـــل والكبرياء ، تتمـــدد هذه الام فراشا من عار ودم عليه يستلقي طفلان كان بمكن ان يكونا من أب شرعي

ــ من يكون أبي ؟؟

صمت تجرض الام بريقها يسري العار مسا كهربائيـــا يجتاح ذرات الجلد يصل مركز العقل مركز الذكرى ، فتنشج المتوسد خندقه الآن قال : لاتنتحبي الدم هو المطهر

بأصابعه يتناول حفنة من تراب الارض يفركها يشـــم رائحتها ، ومن ما وراء العقل تنتشر الروائح روائح العشب والماء والحجر والحب

ــ الوطن موت

ويعبر الفضاء طائر صدره أبيض وفي منتصف البياض بقعة

حمراء الطائر يخفق جناحاه بوهن كأنما اخترقته طلقة ، ووراء الخندق يسقط

مضي والصحراء بعيدة محطة مسافر هجر العالم مطاردا باليأس والعار وفي مركز عقله صورة تذكارية للام التي اغتصبت في زحمة الضوضاء فجاء سفاحا وهذا الهارب رمح مكسور ملقى من زمن بعيد قرب فراش الام ، والآخر وشاح حداد في مأتم لم يبك فيه الا الفقراء الذين فرحوا حتى الاعياء وفي ختام العرس قيل لهم انتهى الاحتفال

ـ مجانا تموت قال اليائس لأخيه

ـ لكن الياس ستار النذل رد الذي لم ييأس

ـ اليأس والموت اخوان

واجاب الآخر حتى الشجر الاصم يقاوم ضربات الفأس باحتدام قال الآخر لكن الفاس بيد من اغتصب امك وهي تهوي فوق جمجمتك كما ترى

ـ الا تميز بين الحق والباطل ؟؟

ـ عندما يصير الباطل حقا والحق باطلا لا يبقى لنا غير الصحراء مركز العقل والصحو

يحتدم النقاش بين الاخوين يتلو الصمت آية ويزداد هبوب الريح والمراة ترى وتسمع في سرها تدعو ان تتوقف الريح ويأتي الهدوء الريح لا تتوقف والذاكرة انصعقت وفي عيني الام يرى كل حزن الارض كل قهر الارض

فراق المرثية الاخيرة في أرشيف كل أسرة المرأة وطفلاها سفينة دهمها اعصار

اعصار ولد من النطفة الحرام من طعنة صخرة مدببة والسفينة ماضية فوق سطح المياه باسم الريح مجراها

كل منهم في قطبه يدور هي في الشوارع عارية تدور كل من يراها ويسمع نحيبها يعرف حكايتها ويمضي عنها يمضي وفي سره كلمة هاجسة عاهرة والريح تقاذفها ، تلسع الجلد الذي ترهل . الجلد الذي كان في لون الثلج وحرارة النار وصلابةالصخر .

وحده وحده تملأ الريح رئتيه حاملة طقوس الماضي
رائحة الام كرائحة الارض ، كرائحة الدم ، كرائحة هذا الفجـــر
الذي ابتدأ وهو الآخر يدور

والهارب مازال يغذ السير عقله يتألق بكل حيوية اليــأس
يصيح بالحجر والشجر والحيوان والانسان والماء ان تتبعه الــى
الصحراء الشجر والحجر والحيوان والانسان والماء لاتتبعه
يناديها فتناديه تذكره بالظل والمأوى بالجوع والظمأ وهـــو
يمضي صوب مملكة بناها العقل وهم العقل

مملكة قديمة عمرها بعد ان هاجر الامل والتاث الفرح

الصحراء الصحراء انزعوا جذوركم واتبعوني عندي
ماء للعطاش واحات من حب وشعر. عندي حرية وشمس. هنــاك
تعود للانسان طفولته الاولى مملكة بلا جنود ولا ملوك ولا خصيان.

اتبعوني ياحزانى الارض اهجروا مدن العار والضوضاء
لم يبق لنا غير الصحراء
انــه يدور

عندما أطل القمر كان في الخسـوف كان وجه القمر في لــون
غبار الصحراء

ورأى ناطر القمر ان ليله كان طويلا لم يضئه قمر ساطع
بغتة اصابته رعشـة اختلج في خندقه حاول ان ينهض فأحس
بالعجز ورأى الدنيا تدور كان وحيدا وفي صدره وردة حمراء
شعر الآن انه والارض عشب وماء

وغاب القمر واطلت شمس واذ اقترب الهارب من تخـم
الصحراء انفجرت الشمس واضيء الكون بنور غمر الارض

قال رجل عابر للمرأة العارية هي ذي سترتي لاتحزني
يا أماه لكل انسان يومان يأكلهما ويمضي
ثم سكنت الريح

